الفصل التاسع والستون

ما أصدر والى مصر إبراهيم باشا وما كتب من رسائل ألف وواحد وثمانون رسالة إلى حاكم الصعيد أوزبك بك وإلى كاشف الواحات وكاشف ولاية أبريم وحاكم ولاية بربرستان وملك بلاد الفونج وملك قاقان، وما زرنا من قرى وقصبات يسر الله لنا زيارتها

وإذا أراد الله شيئًا يسّر أسبابه فركبنا خيولنا المطهّمة وبدأنا سياحتنا وتحركنا من مصر أم الدنيا، وبعد أن قطعنا فى الصحراء ساعتين جنوبًا بلغنا بلدة البساتين وكانت تابعة لالتزام نقيب الأشراف وفيها سبعمائة بيت، وثمانية محاريب وثلاث خطب، ووكالة وعشرون دكانًا، ويحيطها من جوانبها الأربعة البساتين، ويقدم إليها الأعيان من مصر للنزهة، إنها جميلة بها الورود والرياحين وفى وسطها قصر يوسف، والمتنزهون ينعمون بالمتعة على حافة حوضها.

ومضينا إلى الجنوب مدة نصف ساعة وهناك على النيل مرفأ قديم وبعيد عنه جميع أهل الصعيد، وثمة موظف للدولة يحصل رسوم الجمرك من شاطئ النيل، فبلغنا:

قصبة موخنان

وتقع على مسيرة ربع ساعة من النيل فى الصحراء، وبها حدائق وبساتين وهى تابعة لكاشفية الجيزة وبها خمسمائة بيت وجامع ومقهيان وعشرة دكاكين، ولا يوجد فيها الحَمَّام إنها قصبة معمورة، ويحكمها نائب الجيزة منذ عهد السلطان سليم تتبع هذه القصبة شيخ العرب خبير أوغلو وهى أرض ذات بساتين ونخيل: وقصر خبير أوغلو دار ضيافة، ويطعم فيها الغادى والرائح، ومن سلموا قايتباى وكرت باى مقيدين للسلطان سليم من هذا البلد، وقد عبر أحد عشر ألف النيل ومضوا إلى السلطان سليم، وظلوا فى خدمته ولذلك أعفوا من الضرائب، وهم الآن مطيعون منقادون فلما أغار على مدن إقليم البحيرة ألف وأربعون ألفًا من مجرمى عرب بهيجة والهنادى منهم أربعون ألفًا للنهب والسلب، ولما علم بذلك وزير مصر ألف جيشًا من خمسة آلاف فارس وانطلقوا

إلى إقليم البحيرة، وفى أول الأمر واجه كل جندى جندياً فمزق عرب خبير أغلو، صفوف من واجههم، كما أن جنود مصر ألحقوا الهزيمة بعرب الهنادى فتم القضاء على ستين ألفًا منهم، واختلطت جثثهم بالرمال وتدحرجت رءوسهم من ضربات السيوف، وأصيبت منهم غنائم تفوق الحد والحصر، كما أن رجال خبير أوغلوا غنموا ألفى جمل وجاءوا بها فى يوم وليلة من الصحراء، وقدموها هدية إلى إبراهيم باشا فامتلأت مصر بالجمال، ونال خبير أوغلو مكافأة له على ذلك خلعة آصف، وهى رمز للمقاتل الباسل، وقد أكرمه إبراهيم باشا وضيفه ذات ليلة، وفى الصباح، أرسل إلينا خمسين فارسًا، ومضينا سبع ساعات على النيل وبلغنا منزل:

قهوه خانه

وهو أرض واسعة فيها قلعة ذات باب كبير وفى نهاية بابها الكبير مقهى، وهى موضع لاستراحة المسافرين، وبها دكان، إنها دار ضيافة فى الطريق إلى الفيوم وبنى سيف ولا عمران فيها، ومضينا إلى الفيوم بعد سبع عشرة ساعة، وهى أرض ذات رمل كثيرة الأفاعى والحشرات، وليس بها أمان، إنها حدود خبير أوغلو زاده، وهى حد بلدة بنى سيف، ويجتمع أهل القرى فيها كل أسبوع، وهذه القهوة فى سوق عظيمة، وقد اجتزت هذا الموضع، وعلى شاطئ النيل فى الناحية القبلية أرض ذات نخيل وفيها قرى معمورة واجتزنا فى ست ساعات إلى:

منزل بلدة دلى حسين باشا

وتقع على شاطئ النيل على ربوة فى حدود بنى سيف، وبها مائة بيت وجامع وساقية وآبار، فاستقبلنا حسين باشا زاده نوح وضيفنا ليلة فنعمنا بالراحة، وسرنا متجهين جنوبًا نحو النيل، واجتزنا كثيراً من القرى المعمورة على شاطئ النيل، كما اجتزنا:

بلدة زاوية وبلدة قوما دير

وبعد سبع ساعات بلغنا:

بلدة ميمونة

وهى على حدود بلدة بنى سيف، وفى التزام كاتب تذكرة الوزير الأعظم إسحاق أفندى، وبها جامع وعدة أسواق وقصر عالٍ هو دار ضيافة فاجتزتها نحو الجنوب واجتزنا قرى عامرة.

أوصاف مدينة سيف بن ذى يزن

ولذا سميت المدينة ببنى سيف، وفى نواحيها تسكن قبيلة من عرب بنى سيف إنها كاشفية فى أرض مصر، وهى الآن كشوفية، ويتبع كاشفها خمسمائة فارس وخمسمائة جندى مصرى، وبها مائة وأربعون قرية، ويحصل من هذه القرى مائتا كيس وخمسة، و( )[1] أردب من الغلال وتودع ديوان مصر، وعين من قبل الباشا أغا للتحصيل، ويوزع الباشا على كل أحد أردبين من القمح كما أن أغا يأتى من طرف الباشا للتحصيل سريعًا وبها قاض شرعى يحصل منها على مائة كيس فى العام، وتحت حكمه مائة وأربعون قرية، وثمة انكشارية وقائد وعزب الشورباجى وشيخ الإسلام ونقيب وأعيان كبار، تقع المدينة فى سهل فى أرض تبعد عن النيل بخمسمائة خطوة وهى ذات بيوت جدرانها مثل جدران القلاع تحيط بها من كل جانب، وبها خمسة آلاف بيت، وهى بيوت ذات طوابق وفيها قصر الكاشف وبه سبعون حجرة وحمام وديوان وميدان، وبجوار بيت الشيخ على بيت الشيخ صالح وبالقرب من القصر قصور طاصلاق زاده أحمد أغا، كما توجد بها قصور شامخة، ولكن هذا ما عرفناه منها وشاهدناه، وفيها محلات للمسلمين وغير المسلمين، وفيها جوامع وزوايا ولكن ستة منها جوامع تؤدى فيها صلاة الجمعة، وفى سوقها جامع قايتباى وجامع عز الدين لكل منهما حرم ومنارة، وبالقرب من قصر طاصلاق زاده أحمد أغا جامع لم يكتمل بناؤه ولكنه بدون حرم وله منارة على الطراز الرومى وله سبعة أعمدة من الرخام، وفوقها سقف لا نقوش فيه، وكان بانيه فى كل يوم يبنى ملحقات تضاف إليه، وللجامع أوقاف عظيمة وغير منارته رومية الطرز له خمس منارات أخرى عربية الطرز، وتوجد مساجد علاوة على هذه

(١) بياض فى الأصل.

الجوامع، وبها كذلك ثلاث مدارس وبها إلى جانب حجرات الدراسة جامع وبها أربعون مكتبًا للصبيان وأربعون سبيلاً وحمام، ولا توجد أبنية بقدر تلك المذكورة، ولجامع طاصلاق زاده أحمد أغا مِبَرَّةٌ، وكان متولى الوقف ينفق عليها عشرين كيسًا، وقد قرأت الفاتحة له، وبها عَشْرُ مقاهٍ وعشرة بيوت للصباغة وعشر وكالات مشهورة وجملة ما فيها من الدكاكين خمسمائة دكان، ولكن ليس فيها سوق خاصة، وفيها من كل سلعة، ويسكن هذه البلدة عشرون ألف شخص، وجوّها معتدل وفتيانها وفتياتها يتميزون بالجمال لاعتدال جوها، وبها كثيرون من العسكريين المدنيين، وبها سوق كبيرة تقام كل يوم جمعة، ومأكولاتها ومصوغاتها وغنمها مشهورة كما تصنع سجاجيد صلاة بديعة فيها، وبها سجاجيد وبُسُط بديعة النقش، كما تصنع بها مقاعد عجيبة، وفيها حدائق الليمون والسفرجل والتمر، وفى بساتينها الشمّام والبطيخ والخيار والعجور والقثاء والكرنب والقرنبيط والقُلْقَاس.

بيان ضرائح الأولياء التى زرتها

ضريح شيخ الملة وقطب الدولة الشيخ على بطح ملت الذى كان من قبائل العرب التى فى وادى بطح بمكة ولذلك سمى بهذا الاسم، ويزور ضريحه الرجال والنساء، وبجانبه منبع الأسرار ومرجع الأبرار الشيخ صالح الطيار، وإلى جانب الحمام من صحابة رسول الله ﷺ الشيخ عبد الله بن عمرو بن العاص الذى جرح فى البهنسية أثناء إغارة عمرو بن العاص عليها، وعلى ضريحه تاريخ إلا أنه كتب بخط غير واضح، لذلك لم أتمكن من ذكره، وعلى مقربة منه ضريح حاضر أسرار الطريقة وناظر أنوار الحقيقة الشيخ محمد الأنورى، وبجانب الوكالة البيضاء ضريح الشيخة الست حورية، وبالقرب منها الشيخ على كِبَارِى، وقد زرت ضرائح هؤلاء الأقطاب جميعًا، ولكن ثمة كثير من الأولياء والأتقياء مدفون فى هذه المدينة قدس الله روحهم. وقد مكثت فى هذه البلدة ثلاثة أيام ثم تجاوزت عشرين قرية على شاطئ النيل جنوبًا، وبعد ست ساعات بلغت:

قصبة فشنه

وهى على حدود بنى سيف وفى التزامها.

أوصاف قصبة فشنه

وهى قضاء يدر مائة وخمسين أقجه، ويتحصل منها فى العام أربعة أكياس، ويتبعها ستون قرية، وهى قصبة صغيرة وجميلة، لكنها معمورة تقع على ربوة بعيدة عن النيل وفى جوانبها الأربعة سبعة أبواب خشبية كأنها أبواب القلعة، وبها ثلاثة آلاف بيت، وفى كل بيت منها برج للحمام ويحيط بها من جوانبها الأربعة نخيل، وفيها سبع محلات وسبعة محاريب وثلاثة منها جوامع، وفى السوق جامع كبير الأمير، مقام على اثنتى عشرة زاوية عليها أعمدة تحمل سقفًا وله قبة ومنارة قصيرة، وبها أربعة خانات وسبعة مكاتب للصبيان وعشرون دكانًا وسبعة سبل وسبع مقاه وليس فيها سوق ولا حمام، وبها دار ضيافة فى أسفل الجامع، وبها يصرف الطعام للغادى والرائح كما يصرف العير والجياد للمسافرين، وتقام فى يوم الجمعة سوق عظيمة بها، ويجتمع فيها خلق كثير وكل إنسان يبيع سلعة.

أوصاف ضرائح فشنة

ضريح الشيخ عبد الله قدوة الرجال ونقطة الكمال ابن الشيخ جلال، وكما أن هناك قبر للشيخ جودى، وبالقرب منها الشيخ الأمين سلطان الدنيا والدين، وبالقرب منه ضريح الشيخ أبو العال صاحب طريق الكمال والمجاهد بلا جدال، وبالقرب منه الشيخ رمضان قدس سره رحمة الله عليهم أجمعين، ولو وصفت سياحتى فى هذه القرى والبلدان والقصبات والضرائح، وبفصاحتى وبلاغتى لتألف منها مجلد ضخم، ولكنى أصفها على وجه الإيجاز وهذا ما يسره الله لى، اللهم يسر لى إتمام ما أنا كاتبه.

ثم غادرت فشنه واجتزت اثنتى عشرة بلدة معمورة، وبلغت:

صفد أبو جرج

وهى أيضًا قرية وبعد سبع ساعات، مكثت فى:

بلدة قيس

لأن الجو كان شديد الحرارة، وهى التزام يتبع بنى سيف بعيدة عن النيل، وبها مائة بيت، وبها آبار عذبٌ ماؤها، ونزلت ضيفًا على شيخ البلد لأن دار الضيافة كانت خربة، وفى شمال هذه البلدة ضريح الشيخ إبراهيم عبد الرحيم، وله مناقب كثيرة ورد ذكرها فى كتاب الطبقات للشعراوى إنه قطب عظيم، وبجانبه شجرة غريبة وعجيبة، إنها شجرة لا نظير لمثلها، ويأتى إليها الغادى والرائح من الزوار والتجار ويندهشون لرؤيتها.

وصف هذه الشجرة الغريبة العجيبة

إنها تبلغ فى الطول طول خمس قامات للإنسان، وثلاث خطوات، إنها دوحة عظيمة وجذعها يتألف من فصوص فى جوانبها الأربعة، ولمن ينظرون إليها من الوسط يبدو لهم أوراقًا وثمارًا، وإذا بَخَّروا مريضًا بالصرع بأوراقها شفى من مرضه بمشيئة الله، ولها ثمر حامضى الطعم ذات قشرة إذا أكل منها مرتين فى الشهر مصاب بالإسهال شُفى بأمر الله ويأتيها أرباب الحاجات أول كل شهر، إنها شجرة سنط تَنْبُتُ فى وسط الحديقة، وهى شجرة لا ثمر لها تنبت فى بلاد العرب، وهى تشبه شجرة طوبا التى توجد فى الجنة، وهى تمد غصونها ويجلس تحتها الصبيان والظلال التى تمدها تتسع لألف إنسان، يا لها من حكمة عجيبة إنها منكسة، وجذورها بارزة من الأرض، ويقول الشيوخ الذين طعنوا فى السن إن آباءنا وأجدادنا رأوا هذه الشجرة على هذه الصفات إن غصونها اتجهت إلى أسفل إنها تستحق المشاهدة لأنها خلق عجيب إن الله على كل شىء قدير، ويفعل الله ما يشاء بقدرته ويحكم ما يريد ولا يسئل عما يفعل، ورأى بعض المتقدمين فى السن أنها من الكرامات للشيخ إبراهيم وقد أراد أهل البلدة أن يشاهدوا بها كرامات الشيخ إبراهيم فسجد فى الموضع الذى نبتت فيه الشجرة، فخلقها الله توًا بأمر الله تعالى وإنها لم تنبت ولكن هبطت من السماء، وظلت معلقة فقدم جميع من أنكروا الإيمان، كما جاء فى تواريخ السيوطى عنها، وقد قرأت أنا فى تواريخ المقريزى أن فى جنوب مصر القاهرة بالصعيد العالى شجرة معلقة ولا وجود فى الأرض لمثلها، وفى

عصر بنى إسرائيل عمرت هذه الشجرة ألف سنة وقد عبد الله فى ظلها سبعة أنبياء وأن سبعة من اليهود استشهدوا فى ظلها وحينما دفنوا هناك بأمر الله ظهرت هذه الشجرة ونزلت أغصانها من السماء إلى الأرض، وقتلة اليهود أكلوا منها فهلكوا، وصار ساق الشجرة فصوصًا عندما جاء النبى آه واه، وقد دفن فى ظلها هذا النبى، والآن يزورها الخواص والعوام لذلك فما كتب عنها صحيح، لأن ما جاء فى الخطط يعتمد على مراجع صحيحة ولكنى شاهدت الشجرة فلم أجد فى ظلها دفينًا من الأنبياء، وإنما دفن الشيخ إبراهيم فى ظلها.

وتجولت سبع ساعات، نحو الجنوب على شاطئ النيل ومررت بقرى كثيرة وبلغت:

بلدة سمنوط[1] بالصعيد

وهى تبعُد عن النيل وبها ثلاثمائة بيت كما أنها التزام، وحاكمها الأسبق كان كاشفًا، وبها تتم حدود المنيا وإلى جوار ضريحه شجرة نبق عظيمة ولها نبق لذيذ الطعم، وفى قبالة سمنوط على شاطئ النيل دير قبطى شديد الارتفاع وكنيسة كأنها قلعة عظيمة وفرعون بانيها ويجتمع القبط لزيارتها، والرهبان يجمعون المال لخزينة مصر، وثمة صخرة يجرى النيل من تحتها والرهبان من أعلى هذه الصخرة يغترفون من ماء النيل ويملؤن الصهاريج، ويضيفون المسافرين، ويكرمونهم إكرامًا عظيمًا، ويقدمون إلى الضيوف ثيابًا ويقومون على خدمتهم حتى الصباح، وقد شاهدت هذا كذلك ومضينا إلى سملوط فى الجهة الغربية، وركبنا جيادنا ومررنا بقرى المنيا على شاطئ النيل وبعد ثمان ساعات بلغنا بلدة المنيا.

أوصاف مدينة المنيا

مدينة جرجا عاصمة الصعيد العالى، وهى حكومة تابعة للوزير، وقد أصبح اثنان من بكواتها أميرين للحج مرتين، ويحصل منها سنويًا مائتا كيس ( )[2] ألف أردب من الغلال ويحرسها مائة جندى وسبع فرق من جند مصر، ويفيض لها مائة كيس وثمة حاكم من قبل الوزير يكلف أغا فى تحصيل غلالها، ويحصل لمعرفته ( )[3] ألف

(١) يقال لها: سمالوط.

(٢، ٣) بياض فى الأصل.

أردب من الحنطة والشعير والفول، ويقدم إلى الباشا ستة أكياس، ويفيض له خمسة عشر كيسًا ومركز الأغا أعلى رتبة ويأتى فى كل عام أغا ليستعجل تحصيل الغلال وينال على ذلك أجرًا قدره كيس واحد على استعجاله للغلال، وهو ملزم كذلك بتحصيل الغلال، وبها قاضى يحصل على ثلاثمائة أقجه، وشريف القضا يتقاضى عشرين أقجه، وفى نواحيها مائتان وعشرون بيتًا جميلاً، وفيها أربعة مفتين يفتون على المذاهب الأربعة ونقيب للأشراف وسبعة من القواد، وليس فيها عبيد ولا قائد ولا كتخدا سباهية ولا زعامت فى قراها ولا تيمارات ولا سيد فيها ولا رئيس للجند، أما طائفةُ الجند من المصريين فكثيرة؛ لأنها مدينة مزدحمة بالسكان، وعلى شاطئ النيل بيوت ذوات طوابق على ربوة يسكنها أسر كريمة وبها مائة وخمسون من الزوايا والمحاريب والجوامع، جامع قديم لعمر بن الخطاب لأن عمرو فى خلافة عمر بن الخطاب فتحها بعد أن تغلب على القبط، لما أقام عمرو هذا الجامع كان معبدًا قديمًا، إلا أنه كان فى عهد الفراعنة ديرًا وهو واضح على سد عال على شاطئ النيل وطوله تسعون خطوة، وعرضه ستون خطوة، وبداخله اثنان وخمسون عمودًا من الرخام، وحرمه مكشوف، وله ثلاثة أبواب ومنارة قصيرة وسقف منقوش، وتطل جميع نوافذه على النيل، ومحرابه منحرف نحو الركن، وهو من الخشب المنجور، ويزدحم فى الفجر بالمصلين لكنه مقر طلاب العِلْم، وتُلْقَى فيه الدروس العامة، وفيه أربعون أو خمسون حلقة تلقى فيها شتى العلوم، ويختم القرآن من مائة إلى مائتى مرة فى اليوم والليلة، وثمة من حفظة القرآن من هم أكمهون، وكأنما هذا الجامع هو جامع الأزهر فى مصر إنها مدينة طيبة الماء لها الشهرة عند العرب والعجم، وفيها يستجاب الدعاء، وبه مبرة أوقافها عظيمة وبه يُضيَّفُ العلماء والفقراء والمساكين عمر الله هذا الجامع إلى انقراض الدوران[1].

وعلى ربوة على شاطئ النيل كذلك جامع الظاهر بيبرس، ويقوم على ستة وثلاثين عمودًا من الرخام، وفى سقفه نقوش مذهبة بديعة، ومحرابه ومنبره من الطراز القديم، ولكن جدرانه الأربعة من الحجر المكسو، وكأن كل جدار مرآة، ولا وجود لمثله فى

(١) يعنى: إلى قيام الساعة.

أرض مصر، وكل الرحالة الذين يقدمون مصر يعجبون لأساس هذا الجامع لأنه كان فى الأصل صومعة قديمة، وفيه نقوش بديعة من كل الأنواع ويعجز عن وصفه الواصفون، وفى مصر كثير من الجوامع التى أقامها السلاطين ولا وجود لمثلها فى سائر أركان الأرض إلا أن جامع المنيا هذا يختلف عنها جميعًا لأنه فى طرزه عجيبٌ غريبٌ منقطع النظير، وعلى قبته كتب هذا التاريخ (بسم الله الرحمن الرحيم أمر بتجديد هذا المسجد المبارك مولانا السلطان الملك الظاهر بيبرس خلد ملكه سنة عشرين وستمائة) وله بابان ومنارة وكل كواته تطل على النيل، ولكن لا وجود لما يشبه جامع عمرو.

ويقع شمال المدينة وفى السوق السلطانية جامع الشيخ مصرى، وهو تحتانى والمصلون فيه كثير، ويوجد كذلك جامعان لا علم لنا بهما فضلاً عن الزوايا.

وثمة ثلاث تكايا وإحدى عشرة وكالة وثلاثمائة دكان وحمامان، وعلى مقربة من جامع عمر بن الخطاب حمام منذ عهد فرعون بقى على ما هو عليه، إنه حمام قديم عجيب، وهو معلوم لدى العرب والعجم وإذا دخله مريض تم له بأمر الله الشفاء وإذا دخله مجزوم أربعون يومًا، فكأنما خرج من بطن أمه بيضة بيضاء حتى أن ابنة على بن أبى طالب العذراء قدمت مصر ودخلته فشفيت من مرضها، وهذا الحمام من بناء الحكماء القدماء وحوضه ذو صنبور مرتفع بقدر قامة إنسان ويكون فيه الوقوف ويستحم واقفًا وإن لم يكن من الجص، وقد طلى بابه وجدرانه بالمسك والعنبر والزعفران، وجدرانه مبنية من الجبس الخالص والعبير ينعم بتنسمه كل من يستحمون فيه، وينبع من جدرانه ماء الورد والمسك والكافور يتنسمه المستحمون، وجوه معتدل لطيف لقربه من النيل وماؤه من النيل، وأرضيته مفروشة بالحجر الأبيض، وفى زمننا لا يستطيع عامل ماهر فينا أن يضع حجراً مثله فى موضعه، وغرفة الثياب فيه صغيرة وغاية فى الصغر، أما الحمام الذى فى قصر أغا الغلال فحمام جديد إلا أن جوه ثقيل، وثمة أكثر من مائة سبيل، وستون مكتبًا للصبيان، ولا وجود لسوق فيها، وجميع أسواقها مغطاة لدفع الرمال والغبار وشدة الحر عنها، وفى الوسط قصورٌ فيها قصر الكاشف، وقصر أغا الغلال على ضفة النيل وهو قصر جميل، وكل قصورها وما فيها من شرفات ونوافذ

تطل على النيل، وهى قصور عالية يمتد منـها البصر إلى الدنيا، وفى الجانب الغربى من هذه المدينة ستمائـة قرية معمورة، وهى بلاد ذات بساتين كثيرة واسـعة وجميلة لاعتدال جوها فأهلها يشتهرون بالجمال، وفتيانـها حمر الخدود ومردانها يلبسون الحرير المنقوش، والجند فيها كثير، ويلبس فتيانها ونـساؤها على رءوسهن حمر القلانس، ويربطون على خصورهـن مناشف بيـضاء ويضعـون على وجوههـن براقع من الشـعر ويسمـون الخبز المخبوز الأحمَر بالرغيف وهو أحمر اللون كـلون الوردة الحمراء، ومناشفها مشهورة وما أكثر الحدائق فيها، وتجاه النيل فى هذه المدينة آثار فرعونية كأنها أطلال قلعة.

وجاء فى بعض التواريخ أن الشيخ المصرى مدفون فى جامع المصرى، ولم يتيسر لى أن أزور ضريح آخر سوى هذا الضريح فى هذه البلدة.

ومضيت من هناك وسِرْتُ على شاطئ النيل نحو الجنوب، وبعد خمس ساعات بلغت:

مدينة أشمونين القديمة

وقد بنـاها أشمون بن بـيطر أبى القبـابط بن نوح، وفيـها آثار وأطلال مغـمورة فى الرمال، وإذا تعرضنا لوصفها لَمَسَّتِ الحاجَةُ إلـى مجلد كامل، وفى هذه البلدة ثلاثمائة بيت وجامعان وعدة دكاكـين وهى تابعة لكشفية جرجا، وهى قضـاء يدر مائة وخمسين أقجـه، وفى نهايـتها أربعـون قرية، وبهـا سوق تقام كـل أسبوع هى قـصبة صغـيرة. وتجاوزتها، وبعد ثمان ساعات بلغت:

قصبة بداوى، أى بلدة ملوى

وهى تتـبع حكم جرجـا، وهى داخلة فـى كشفية المـنية وألحقت بـها قضاء المـنية، ويتحصل من قضائها مائة وخمسون أقجـه فى الأحايين وبها ستون قرية ويحصل غلالها أغا غلال المنيا ولها قـائد من طائفة الانكشارية وعدد من الانكشارية والـعزب أما نقيبها ففى المنيا وهى على شاطئ النيل على ربوة، وهى بلدة جميلة لأن النيل ينحرف جنوبها وقد عصفت الريح بكثـير من بيوتها فهدمت وتخربت، فأقام أهلـها بيوتًا لهم فى أرض واسعة بالقرب منها منذ خمسين عامًا، وهـى بيوت جميلة وقصور شامخة، وهى أربعة آلاف وخمسمائة بيت ولا وجود فى الصعيد لمدينة جـديدة جميلة مثلها، وجميع بيوتها

لها أبـواب وجدرانها حمـر وسود وبيض وكتـب على كل منـها اسم صاحب الـبيت، وتاريخ بنائه وفى هـذه المحلة ست عشرة محلة وأربعون محـرابًا وخمس خطب، وفى السوق جامـع يوسف بك يصعـد إليه بسلم مـن ست درجات، وطوله وعرضـه ستون خطوة وفى داخله ثلاثون عـمودًا من حجر أبيض تحمل سقفه، ومحرابـه ومنبره خاليان من النـقوش، وفى أطراف حرمـه اثنان وعشرون عـمودًا، وله ثلاثة أبـواب ومنارة ولا وجود لمنارة أخرى فى تلك البلدة، وفى البـلدة جامعان آخران علاوة على زاوية كما أن فيها حمامًا وأربعمائة دكان على الطريق وصاحب هذا الجامع يوسف بك، وهذا الجامع وقف ليـوسف بك، ومائة دكـان تبرع بهمـا محمد بك حـاكم جرجا، وكل الـدكاكين مغطاة سـطوحها، وشوارعها الـرئيسية نظيـفة يسقى به الـسقاءون ماء النيل وبـها ثلاثة خانات وسبـعة مكاتب للـصبيان وسبع مـقاه، وستة سبل وبـيوت للعسكـر وخمسون طاحونة مائـية تديرها الخيول، وسبع طواحـين للزيت، ولم أرَ فيها مخـابز، إن جميع الأهالى فى هذه البلدة يـخبزون خبزهم فى بيوتهم، يسكنها سـبعة عشر ألف شخص، ولكنـهم يحبـون ويضيفون الـغرباء، وفى جـوانب المدينة الأربـعة أبواب كأنـها أبواب القلاع، وهى من الخشب، وعليها مزاغل، ومنـها تطلق النار على المجرمين من العرب إذا أغاروا على المدينة، وفـى كل ليلة يسد الحراس هذه الأبواب ويسلمـون المفاتيح التى تخص أبواب المـدينة إلى شيخ البلـدة، إنها مدينة مسـتتب فيها الأمن وجوهـا معتدل، وأهل ملاوى مشـهورون بالجمال، ومحصـولاتها معروفة ومـشهورة وصناعتهـا أعرقها السكر والسكر الـنبات، ولا وجود لمثله فى أراضى مصر، ولكنـه يأتى من الشام، وفى بساتينها عود قصب السكر يبلغ فى الطول ثلاث قامات إنسان وهو فى غلظ الذراع وكل أنبوبة فيه قـدر شبر، وهو لذيذ كثير الماء، وقـد قطعت أنبوبة منه وعصـرتها فى كوب فكانـت مثل ماء الورد فـكانت شرابًـا يجدد الحياة وهـو مفيد للـجسم وقشـره رقيق، ومجمـل القول أنه لا وجود فـى أرض مصر لما فى ملاوى مـن سكر وقصب الـسكر، وهذه البلـدة واسعة الشهرة بذلـك وفيها كذلك أشيـاء أخرى كثيرة، ولكن الـسكر هو أفضل ما فـيها، ولكنى لـم أزر ضرائح كبار الأوليـاء فيها وإن كنت قـرأت لهم سورة

يس، وتجاوزت مدينة ملاوى فى أرض ذات نخل، وانطلقت جنوبًا على شاطئ النيل، وبعد ثلاث ساعات بلغت بلدة: دارود الشريف.

أوصاف قصبة دارود شريف

إنها تابعة لحكم جرجا تتألف من ثمانمائة بيت وهى بلدة صغيرة معمورة، وناحية صنبو قضاء وغلالها مما أوقف فى مصر على الحرمين وهى فى التزام السادة الأشراف، وفيها جامعان وست زوايا ومقهيان وثمانية دكاكين وقد حفر فيها يوسف الصديق وأمده جبريل بالمصابيح ترعة، وذلك قبل أن تصبح هذه التى بالفيوم ترعة كانت جرفًا وحوض يوسف وجميع ما فى مصر من ترع ومن خلجان تظهر فى كل عام بالجواميس والثيران ومائة ألف من الرجال، وترعة دارود التى فى مدينة الفيوم لم تكن جرفًا ولكنها شوهدت فى موضعها، وهى تجرى نحو الغرب وتروى مئات القرى وتمر من مدينة بهنيسا كما تسقى بلدانًا أخرى كثيرة، ورأيت فى جانب الفيوم بحر يوسف، وماؤه ملحٌ إنه بحيرة عظيمة، وسوف نكتب عنها فى موضعها ثم عبرنا بلدة ترعة دارود، وتجولت ثلاث ساعات وبلغت قصبة صنبو.

أوصاف قصبة صنبو

إنها فى حكم جرجا، وفى التزام السادات، وفيها صوباشى تابع للوقف وبها مائة وخمسون قضاء، وبها سبع وستون قرية، ويتحصل لقاضيها ثلاثة أو أربعة أكياس فى العام، ونصيب البلدة عشرون ألف أردب من القمح والغلال، وتقع على ضفة النيل، بها ألف بيت وثلاثة جوامع وسبعة دكاكين وليس بها حمام، كما لا يوجد بها خان ولا حدائق إنها قصبة صغيرة، ولكن بها دار ضيافة للغادى والرائح، وفى قصر عظيم يقدم فيها للضيوف فطور وطعام مرتين فى اليوم، وللمسافرين بيت للشعير فقمت منها صباحًا ومضيت مدة أربع ساعات على شاطئ النيل شرقًا، ثم انعطفت على شاطئ النيل جنوبًا أربع ساعات أخرى لأن النيل ينحرف فى هذا الموضع وكأنه رقبة البعير، وهناك فى النيل جزر ذات غابات وتماسيح ولصوص يركبون القوارب، وتجولت فى هذه المدينة ثمانى ساعات وبلغت مدينة منفلوط.

أوصاف بناى لوط اى مدينة منفلوط

وهى من بناء أبناء لوط بن أبى القبابط، ومدينة منفلوط مسطورة فى دفتر خانه جرجا والشائع خطأ على ألسنة العوام أن اسمها منفلوط وذلك سبب تسميتها بهذا الاسم وهى فى حكم جرجا باسم منفلوط، وهى مدينة قديمة ذات حكومة عظيمة، وقد منح وزير مصر حاكمها خلعة فاخرة، حتى فى يومنا هذا مصاحب أحمد بك يقدم هذه الخلعة وبها سبعة فرق مصرية من جنود مصر يحافظون على الأمن فى سبعمائة وعشر من قراها ويحصل منها مائتا كيس من مال السلطان وعدة من الأرادب من الغلال ويتصدق بمائة كيس بعد المصاريف، لأن من الواحات وبلاد الفونج والسودان يأتى النخاسون بمائة ألف جمل وآلاف الخصيان السود والبيض من السودان، ويمنح كل أسير ديناراً ذهبيًا ويمنح كل جمل قرش واحد، ويحصل من ذلك مال كثير، إنها مدينة يمر بها ناس كثيرة وكان قبل الباشا يحصل غلالها أغا الغلال، وكان يحكم البلاد ستة أشهر، وكان يتقاضى من الكاشف كيسين فى العام وحصانين وعدد عشرة من الخصيان المماليك ومومتهم عشرة قروش، وهؤلاء يحصلون الغلال، ويأتى أغا كذلك يستعجل تحصيل الغلال وينال من الكاشف كيسًا أجرًا على مقدمه فيلح على تحصيل الغلال، وعلى كل أردب يحصل يأخذ الباشا أغا بارتين ويورد للوالى سبعة أكياس، ويبقى بعد ذلك فائض قدره سبعة أكياس إنها قضاء يدر ثلاثمائة كيس، ومن ثلاثمائة قرية يحصل القاضى افندى عشرين كيسًا، وثمة قائد ونقيب وأعيان كبار، وعلى بعد ألف خطوة غرب النيل وعلى ضفة ترعة عظيمة ثمانية آلاف وستمائة بيت وهى من طوابق وهى جميلة مزينة، وفيها كثير من الفقراء المساكين وليس الأعيان بهذه الكثرة، ولكن التجار كثير، وفيها ثلاثون محلة وثمانية وثلاثون محرابًا وثمانى خطب منها الجامع الفوقانى للسعيد الشهيد: محمد بك ويصعد إليه بسلم من عشرين درجة إنه جامع لم يتم بناءه، ولكن المصلين فيه كثير وليس له مئذنة ولا حرم، وتحت الجامع دكاكين ولكل سوق بابان، وفى وكالة محمد بك جامعه وقد بنى على زاوية كانت من قبل وقد أقيم هذا الجامع فى وسط السوق المزدحمة، ويصعد إليه بسلم من حجر، وجامع عثمان بك جامع عتيق

كبيـر، وطوله وعرضه خمسون خطوة وله سقـف منقوش وله بـاب للقبلة وبـابان فى ناحيته ولـه منارة وخطبة ويسمى الشـيخ جمال الدين ويقولون إنـه من أولياء الله، وقد صام صومًا داوديًا وقد تلقيت منه الدعاء لى، وفى وسط السوق الجامع اليتيم، والجامع العتيق وجامع الكاشف محمد أغا، وهو جامع معلق يصعد إليه بسلم حجرى من ثمان درجات، ولذلك يسمونه الجامع المعلق إنه جامع صغير، وليس به منبر ولا مدرسة ولكن زواياه كثيرة، وله ستون سبيلاً وسبعة وأربعون مكتبًا للصبيان، ودار للحديث وثمانيـة خانات، وفى داخل السوق حمـام إمام خان وفى السوق كذلك حـمام ويوجد مثله فى ديار مصر، وعلى نهر النيل فى دمـياط حمام، وهو جميل البناء إلى أبعد غاية وفى المدينة ألف دكان، وكلها مغطـاة، وهذا خاص بديار العجم ولا وجود لسوق وإنما لخان تباع فيه السلـع النادرة، وثمة سوق للغلال وسوق للغنم وخـارج المدينة أحد عشر سوقًا، وعـلاوة عليها سوق لـلنساء، وأسواق هـذه البلد كلـها تقع على ربـوة، لأنها مرتفعة مَنْ نظـر منها إلى أسفل دار رأسه وقد كتب على مـعظم الأبواب وأعلاها الآية الكريمة: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً﴾ [آل عمران: ٩٧]. وسألت ما أصل هذه النقوش فقيل لى بعد إيتاء الـزكاة من يخرجون لأداء فريضة الحج ثم يعودون فينقش النقاشـون على بابه هذه النقوش والآيات، وكثير من هـذه الأبواب يوضع عليها جلد التمـساح خوفًا من اللصوص، وهذه الأبواب مـثل أبواب القلعة عجيبـة وغريبة، وجو هذه المدينة جميل ويبدو الشبان بوسامتهم هنا وهناك وحدائقها وبساتينها لا تحصى كثرة وعندما يـفيض ماء النيل وتجرى مياهه فـى الترعة يجتمع على ضفـتها جموع من الشباب للهو والمتـعة فى العصر حتى مغيب الشمس، ووجـوه أهلها وردية اللون، وهم يتاجرون فى الحرير والمنـاشف كما يباع على شاطئ النيل حريـر القمصان وأشياء أخرى ويتعيشون من ذلك، وفيها سبعون طاحـونة زيت ومائة وعشرون طاحونة قمح وعشرون مقهى وحانـة، وبها محلة لليهـود وأخرى للقبط وللمـسيحيين واليهود ثلاثـمائة بيت، وللأرمن وللأوربيين بيوت فـيها وهم يأكلون الخبز فيه الينسـون، والجبن القريش والزبد الأبيض والكعك وفطائر البوريك، والعسل الأبيض المصفى والليمون والسفرجل والرمان والنبق وغير ذلك كثير، ولكن ليس هناك جميز ولا موز وهم يكرمون الضيف.

بيان بالضرائح فيها

ضريح الشيخ محمد زعفران، وهو إلى جوار الأسواق السلطانية، وضريح الشيخ محمد أنفاس المغربى، وهو بالقرب من المسجد، وضريح الشيخ محمد القبيح وهو بالقرب من جامع اليتيم، وبالقرب منه ضريح الشيخ عبد الكريم وفى الجانب الغربى ضريح الشيخ عباس وفى الجهة القبلية ضريح الشيخ سليمان سلمانى، وبالقرب من قصر الكاشف مدفن الشيخ عثمان، وفى وسط المدينة الشيخ أبو الحسن، وعلاوة على ذلك توجد آلاف القبور وقد مرغت وجهى على هذه الضرائح وسألتهم البركات والعون، قدسنا الله بسرهم العزيز، ومن صلحاء الأمة أصحاب الكرامات الشيخ على سنارى، والشيخ محمد المنفلوطى كما وجدت قبور للطرارين والعيارين والمضحكين، ولكننا عرفنا الحافظين وأصحاب الكرامات ومن هؤلاء الذى حدد ميقات فتح القلعة بالساعة والدقيقة، وقبل أن تفتح بثمانية وخمسين يومًا، وقد رؤى فى الطريق يبشر به وهو من المجاذيب، وغادرت هذه المدينة بعد ثلاثة أيام، ومضيت جنوبًا ست ساعات حتى بلغت مدينة أسيوط القديمة.

أوصاف مدينة أسيوط القديمة

أسيوط فى اللسان القبطى اسم كاهن عُمِّر طويلا وكان له حَظٌّ من جميع العلوم لأنه أدرك نبى الله إدريس ـ عليه السلام ـ وهذا الاسم فى أفواه العوام هو سيوط وفى الزمان الماضى كانت أسيوط قلعة قديمة ضرب عمرو عليها الحصار سبعة أشهر ثم فتحها فتحطمت أسوارها وبرجها، وآثارها ظاهرة للعيان كأنها شمس الضحى وهى مدينة حول جهاتها الأربعة أرض منخفضة، وهى كاشفية تتبع جرجا، وفيها ثلاثمائة جندى وثلاثمائة جندى مصرى من أربع فرق، ويتحصل من أربعمائة وعشرين قرية خمسة وثمانون كيسًا وألف أردب من الغلال، ويحاسب عليها فى ديوان مصر ولها موظفان لاستعجالها وتحصيلها، وتجمع الغلال فى فترة تتراوح بين ستة وسبعة أشهر، وترسل إلى مصر فى السفن، كما أن الموظفين يحصل كلٌّ منهم على ثلاثة أكياس، وما يفيض من ذلك لا يرسل إلى الباشا، وهى قضاء يُدِرُّ مائة وخمسين أقجه، وحواليها مائة قرية

وخمسة، ويحصل منها ثمانية أو تسعة أكياس، وفيها مفتى على المذاهب الأربعة وشيخ إسلام، وسبع طوائف للقواد والأعيان الكبار، وهى مدينة قديمة تقع على بعد ألفى قدم من شاطئ النيل وعلى ربوة عالية فى حدائق ونَـخِيل وفيها ستة وعشرون محرابًا وتسعة جوامع يـخطب لصَلاة الجمـعة فيها علاوة عـلى المساجد، ولهـا جامع جديد بنـاه مير يوسف بك وطوله وعرضـه خمسون خطوة، وفيه ستة وعشرون عـمودًا، وعليه سقف غير منقـوش ومنارته من ثلاثة طوابق، وجامـع أمية وهو جامع عتيق فى جـانبه الأيسر باب ينزل منه بسلم من الحجر وطوله وعرضه ثمانون خطوة، وفى داخل الجامع ثمانون عمودًا من الرخام وفى حرمه أربع شجرات نبق وأربع نخلات، ومنبره من الخشب المزين وعلى بابه كتـب عليه بالخط الكوفى البـسملة وآية الكرسى، وصاحب الخـيرات الخليفة عمر وقت الفتح.

وقد عمر عام خمسمـائة، وهو جامع عتيق ويقول البعض إن عمر لـم يبنيه إن بانيه عمر من الخلفاء الفـاطميين الذى كان له المُلك على مصر عام خمسـمائة، والعهدة على الراوى، وفى السوق جامع الحمصى وهو يقوم عـلى ثمانى عشرة قاعدة من الرخام وله سقف منقوش وبابان جانبيان ومنارة جميلة من طابقين وجامع القاضى صدر الدين يقوم على اثنى عشر عمودًا وهو جامع جديد مسقوف، وله بابان ومنارة وليس له حرم، وثمة زوايا إضـافة إلى هذه الجـوامع، توجد كـذلك تكـية وست مدارس، وسـبعون سبـيلاً وأربعون مكتبًا للصبيان، ودار للقرآن ودار ان للحديث، وستة وكالات وحمام وهو حمام جميل مـعتدل الجو كما يوجـد ثلاثمائة وستون دكـانًا، ولا وجود لمحال للقمـاش فيها والصاغة فيـها كثير، وفيها سـبع عشرة مقهى، وأربعـون طاحونة وخمسمائـة طاحونة تديرهـا الخيل ولا وجود لطـواحين فى خارج المدينـة لأن فى هذه المدينـة خلقًا كـثيرًا، والقـرى التى خارج المـدينة فى حـاجة إلى الطـواحين، وكل هذه الـطواحين تيـمارات وزعامات، وفى سجلات شيخ البلد أن عدد سكـان هذه المدينة مائة وستة وأربعون ألف شخص، وشوارعها وأزِقَّتها مزدحمة بالناس، وقديمًا كان بها قلعة ما زالت آثارها باقية، وقبل مجىء العثمـانيين إلى مصر، كان حكام جرجا يحكمـون هذا الإقليم مع وزيرهم

وفى هذا الـزمان كان بها سـبعة وعشرون ألـف بيت وأربعـة عشر حمامًـا، وقد رأيت زواياها، وحماماتـها القديمة، وحول هذه المدينة رأيت سوراً لـه أبواب كأبواب القلاع، وكان لـهذه الأبواب حـراس ليلاً ونـهاراً لأن حولهـا فى الجانـب الغربـى كان يسـكن مجرمون من الـعرب وكان هؤلاء العُربان يسكـنون فى المغارات، ولهم حظائـر لخيولهم وكان فيها يسكن قوم لوط وفى هذه المدينـة كهوف دفن فيها بعـض الموتى، وفى هذه المدينة محلة للقبط ولا وجود لأحد من أديان أخرى إن هؤلاء يغدون ويروحون للتجارة ليس إلا، وتوجد فيـها كنيستان، وجو هذه المدينـة معتدل وفيها فتيان وفَتَـيَات يتسمون بالجمال، إنهم جميـعًا يكرمون الغرباء ويحبونهم وهم من أهـل التقوى، والدكاكين فى هذه المدينـة تقع فى شارع واسع، ولا وجود لدكـاكين فى طريق إلا فى الطـريق العام، وفيها سـوق سلطانية مغطـاة لدفع شدة الحر، ولها الـشهرة بالحرير الأبيض والمـناشـف والبـن والغـلات ومعظـم الحرفيـين فيها نساجـون، ويأتى إليـها كثير من أهل المغرب، ويحملون معهم أحمالاً من الحرير والكتان، ويحملونها إلى بلاد المغرب معهم.

بيان الضرائح التى فى هذه المدينة

فى الناحية الجنـوبية لهذه المدينة، مقبرتان كبـيرتان منهما ما يسمونهـا الجبانة الكبرى ويصنع أهل هـذه المدينة لموتاهم توابيت مـن الجص الأبيض، ويكتبون عليـها التاريخ، ويزرعـون حولهـا الأشجار ويبـيت كثـير من الـفقراء فـى هذه الجبـانة ليدفـعوا عنـها الحيوانات، وعلى الطريق العام يوجد كثيـر من السبل، وآلاف القبور للصحابة الكرام، ويشهـد أهل المدينة علـى أنه عند محـاصرتها استشـهد سبعمـائة من الصحابـة الكرام وأبنائهم ذوى الاحترام وقبورهم معلومة للجميع، وإذا ما كتبنا فى هذا طال بنا الكلام، إنها قبور عظيمـة وهى لهم، وفى داخل المدينة قبر الشيخ اسكـندر، وجانب الجسر قبر الشيـخ محمد المجذوب وبـجواره الشيخ رودى، وهـم من السادات الكـرام رحمة الله عليهم أجمعين، ثم غـادرنا أسيوط مع رفقائنا وعبرنا الجسر السلـطانى الواقع فى الجهة الجنوبية، ومضينا فى الصحراء.

بلدة شطب

وهى على حد قضاء أسيوط، وفيها ثلاثمائة بيت للمسلمين وقرى للأقباط، إنها بلدة قديمة تقع على جبل أحمر، وكان على قمة هذا الجبل فى ماضى الزمان قلعة وتبدو آثارها، وإلى الجانب الشرقى من الجبل مغارات وأرض خربة إذا بلغها الإنسان اعتراه الخوف الشديد، ويسمون تلك البلدة التى على رأس الجبل وادى طير.

أوصاف جبل الطير

ويسمونه كذلك جبل طيليمون، إنه عجيب وغريب جدير بالمشاهدة إنه جبل عظيم يحار فيه الوصف، ويأتى إليه أنواع من الطيور من الروم فى فصل الربيع، ومكثنا على هذا الجبل، ونزلنا ضيوفًا على أهله ولكن ليس فيه طيور اللقلق والبجع، وتحت الجبل أرض صحراوية، وكانت الطيور تصيح طوال الليل إلى حد أنه يتأذى بأصواتها المستمعون إليها، ويعرف ذلك أهل تلك المدينة، وثمة مقبرة فوق هذا الجبل، وفى كل قبر طيور مدفونة فى كفن، وأكثرها طيور اللقلق المكفنة، وتأتى جميع الطيور إلى هذه المقبرة وهى ترفع أصواتها بالنواح، وتحوم حول هذه المقبرة وتزورها، كما أنها تمكث فى هذا الجبل، ومعظم هذه الطيور التى فى الأكفان تبدو من القبور وأجسامها لا تبلى فى أكفانها، ولا يعرف أحد شيئًا عن هذه الطيور المدفونة، وقد حملت طائرين مكفنين حديثًا إلى الكتخدا إبراهيم باشا فرآهما، وعند الفجر ارتفع صوتهما بالصياح، وكان صياحهما يثير الفزع ويتوهم من يسمعهما أن الوقت وقت السحر.

وفى هذا الجبل غار عظيم، وتصيح الطيور عنده، وبعد أن تصيح سبع صيحات تحوم حول الغار ثم تمكث فى هذا الغار كأنها تتشاور فيما بينها، ثم يدخل طائر من كل جنس من الطيور هذا الغار ولا تخرج من هذا الغار المظلم بل تموت فيه وإذا لم تَمُتْ هذه الطيور فى الغار امتنعت بقية الطيور عن الطيران، وإذا خرجت بعض الطيور من الغار فإنَّ الطيور الأخرى تنقرها وتقتلها، ويضعون غيرها فى الغار، وبعد أن تطلع الشمس، تغادر جميع الطيور هذا الجبل، وتصعد صيحة حزينة وتدور حول قمة هذا الجبل حتى مغيب الشمس، ثم تعبر النيل إلى بلاد الفونج، وتخرج من جزيرة مصر

هـذه وتمضـى نحـو البحـر المحيـط جنوبـًا، وقـد رآها البُرْتُغَاليون والهنـود فى سفنهم ولا يعلم إلى أيـن تمضى بعد عبورها البـحر المحيط، ولا يخرج من جزيـرة مصر طائر اللقلق، ولكنهـا لا تفرخ على الساحل، لأن بيضها ينضـج فى الحر، ولقد شهدت فى طريقى إلى مكة بيضة نعامة ذات مرة، وقد ثقـبتها وأفرغت ما فيها لإحضارها إلى بلاد الروم إلا أن هذا الفرخ الذى خرج من البيضة طار من شدة الحر وقد زرت مقبرة الطيور ذات الأكفان، ومضيت إلـى الغار المذكور، وكان غارًا عظيمًا ولم يـكن ظلامه دامسًا، ولكن من جثث الطيور تصاعدت رائحة تفقد الإنسان وعيه، ورأيت جميع أنواع الطيور فى هذا الغار، وفى كل عام تأتى الطيور من جميع الأجناس إلى هذا الغار وتمضى هذه الطيور إلى أسوان والسودان وتعبر البحر المحـيط، وتعود إلى السواحل فى الربيع وتحوم حول هذا الجبل سبع مرات وهذه الطيور لا تنام ليلاً بل تمضى وتتهافت على هذا الغار، والله يعلم عدد هذه الطـيور، وفى كل عام تبدى منظرًا عجيبًا ويـأتى أهل هذا الإقليم، ويمضون إلى هذا الغار ويذبحون كل طائر وهم يصنعون فى ذلك مثلما كان عليه آباؤهم بحيث لا يبـقى فى الغار طائر، وهم يعلـمون أن الطائر منها إذا وقع فتـلك أمارة على القحط، وكل إنـسان يخزن متاعه على أن قـحطًا عظيمًا سوف يقـع، وإذا صلب طائر سهل صيده وإذا صـلب طائران أخذوا بيضهمـا، وإذا صلب ثلاثة طيور كانـوا غنيمة، وإذا اقتربت من النيـل بمقدار ستة عشر ذراعًا تحصل مال للدولـة وإذا صلب أربعة طيور أثرى جميع الملتزمين، وإذا صلب خمسة طيور أصبحت أفراد الرعية جميعها أمراء، وإذا صلب ستة طيور ارتفع النيل ستة وعشريـن ذراعًا وكان فى كل سنبلة مائة حبة، ويعجز الفلاحون عن حمل محصولاتهم من بيادرهم وهـذا معتقد الفلاحين فى الصعيد ويعجز الرعايـا والأمناء والكاشفـون أيضًا عن حمل مـحصولاتهم مـن البيادر، وتلك حـكمة عجيبـة وطلاسم قديمة وسحـر، والحمد لله أننا رأينـا هذا المنظر العـجيب فى سياحـتنا وتجاوزنا هذه المحلة وانطلقنا جنوبًا وبعد ست ساعات بلغنا قصبة أبو تيج.

أوصاف قصبة أبو تيج

إنها كاشفية تابعة لحكم جرجا، وبها مائتـا قرية يتحصل منها سبعون كيسًا وعشرون ألف أردب من الغلال، ويحاسـب عليها فى ديوان جرجا، ويقيم أغـا استعجال الغلال

فى جرجا، وليس فيها عسكر ولا مفتى ولا نقيب، وهى قضاء يغل مائة وخمسين أقجه، وفى ناحيتها ثمانون قرية، وهذه القرى تلحق بقاضيها ويتحصل منها على خمسة أكياس فى العام، وبها ألف بيت وسبعة محاريب وثلاثة جوامع وستة مكاتب للصبيان وخمسون سوقًا صغيرة إنها قصبة صغيرة اقتضت حكمة الله أن أنزل ضيفًا على دار ضيافة كاشفها، وفى الضفة المقابلة للنيل قبيلة أبى يحيى بها ستة آلاف فارس وجند يركبون الجمال وقد حاصروا دار الضيافة التى كنت بها ونشب القتال وبدأوا فى إطلاق رصاص بنادقهم وفى دار ضيافتنا هذه وقف عشرة من الجند التابعون لإبراهيم باشا وثلاثة وعشرون من جند الكاشف وسبعة جنود ممن معنا ووقفوا جميعًا وراء ثقوب المزاغل وأطلق الرصاص عليهم فقتل ستة عشر من العرب وسبعة جياد وقدم فرسانهم إلى قصبّتنا، وكان معنا سبعون فارسًا فخرجنا من دار الضيافة ووقعت مناوشات بين الطرفين وقد قتل من العرب ستة وعشرون كما قتل فى دار الضيافة اثنان وأربعون من العرب وقد تدحرجت رءوسهم، وتعلق بقيتهم بأذيال الفرار وكثير منهم غرقوا فى النيل وغنمنا منهم سبعين جوادًا وسبعة حُجُور[1] وأحد عشر هجينًا ووقع فى الأسر ثلاثة عشر عربيًا واستشهد منا سبعة من العرب ونفق جوادان وقتل جندى من جنود الباشا وثلاثة من رجال الكاشف وأمام دار الضيافة وضع اثنان من العرب على الخازوق ووضعت رأسهما على رمح وحشى جلدهما بالقش وبعث بهما فى موكب إلى جرجا، وقد وهبنى الكاشف ثلاثة حجور وهجينًا، وقد مضيت مع الجند إلى جرجا فى الموكب وتجاوزناها إلى:

بلدة شيخ ابن عابد

وهو من المشايخ المطيعين للسلطان سليم، وتسمى هذه القبيلة قبيلة الهوارة وخيول مصر فى هذه القبائل إنهم عشرة عشائر وقبائل، ورجالها شجعان ولهم ثمانية آلاف جندى وأرضهم كثيرة المحاصيل ولهم خمسمائة بيت وجامع ودار ضيافة، وللشيخ عابد بها قصر عظيم، وثمة ضريح للشيخ ابن منجا وفى كل ليلة جمعة يزور الشيخ ابن عابد ضريح الشيخ ابن منجا ويقيم له المولد الشريف، ويضيف الفقراء والمساكين ومنحتنى

(١) الحِجْرُ: أنثى الخيل، والجمع: حُجُور وأحْجَار انظر: المعجم الوجيز ص ١٣٦.

قبيلة الهوارة مهراً ومضيت إلى شاطئ النيل ثانية، والنيل فى تلك الناحية واسع وفيه جزر، وفى كل جزيرة غابة وهناك فى النيل تماسيح وأفراس النهر، وإذا فاض النيل انشعب من النيل ترعة فى الرمل وهى ترعة عظيمة، وفيها تجرى مياه النيل، وبهذا الماء ترتوى آلاف القرى وفى هذه الترعة عمود عليه طلسم ضد التماسيح ولذلك تخاف التماسيح دخول هذه الترعة. فإذا دخلها تمساح نفق وانقلب على ظهره على وجه الماء، وهناك التماسيح تأكل الجثث التى فى الطين وصغار الأحجار وتصعد من قاع النيل جثث التماسيح بين الجزر بعد أربعين يوماً ويمضى أهل تلك القرى وأولادهم إلى شاطئ النيل وهم آمنون لا يخافون شيئاً، ويشربون من مائه، ويمضى الرجال والنساء إلى ساحل النيل، ويضربون ماء النيل بعصىّ غلاظ.

والتماسيح تخطف خيولهم وجمالهم وتصعد الجزر وتأكلها، إنه حيوان لعين ويداه وقدماه ضعيفة وهو يبتلع الرجال والأطفال، أما إذا دخل التمساح ترعة الرمل نفق فى التو من أثر الطلاسم التى فى الترعة، والفلاحون يخلون جسمه من جلده ويصنعون من جلده قوارب يعبرون بها الترعة ومضينا سبع ساعات جنوباً وعلى بعد من النيل قصبة تمه.

أوصاف قصبة تمه (طما)

إنها التزام تابع لجرجا، وبها خمسمائة بيت وجامعان ومقهى وبها سوق عظيمة ودار ضيافتها قصرٌ كبيرٌ، وفيها حدائق هنا وهناك وبها ساقية وزاوية، وتجاوزناها إلى أرض ذات نخيل وبعد خمس ساعات بلغنا قصبة تحته (طهطا).

أوصاف قصبة تحته (طهطا)

بنيت فى عهد العباسيين إنها تابعة لجرجا ويتحصل منها ثلاثون كيساً وثلاثة آلاف أردب من الغلال وفيها من الجند ثلاثمائة. إنها كاشفية وليس فيها طوائف عسكرية ولا شيخ إسلام ولا نقيب أشراف ولا قواد، وهى قضاء يدر مائة وخمسين أقجه، وسبق أن تحصل من مائة وخمسين قرية فيها عشرة أكياس، وأغا استعجال الغلال بها مقيم فى جرجا.

وهى تقع على ربوة بالقرب من شاطئ النيل، وهى ليست قصبة كثيرة السكان أما

قديمًا فكانت معمورة وآثار مبانيها ظاهرة، وفيها الآن ألفى بيت وعشرون محلة وسبعون محرابًا وتسع خطب وتكيتان وحمام مظلم قذر ومائة سوق صغيرة وثلاث وكالات وثلاث مقاه، وعشرون سبيلاً، وفيها ثلاث منارات ظاهرة إضافة إلى الزوايا التى ليس لها منارات، وهذه البلدة ثقيل وخمٌ جوها، وأهلها فقراء، وبالقرب من البلدة فى النيل جزر، ويَضِلُّ الإنسان فى شوارعها كما أن فيها كثير من التماسيح، وبعض الفتيان يقتلون هذه التماسيح وينصبون جلودها على الأبواب دفعًا للصوص، وأكثر الأبواب فيها عليها جلود التماسيح، وقد دفن فى أرضها أولياء.

الأولياء المدفونون فى أرض تلك البلدة

فى خارج المدينة قدوة الرجال ونقطة الكمال الشيخ أحمد الفرغل ولقد أظهر من كراماته الكثير، إنه قطب عظيم، كما زرت الضرائح التى فى المقبرة التى تجاوز ضريحه ومضيت فى البستان القريب منه، وهو كثير النخيل، وكان الجو شديد الحرارة.

أوصاف حكومة بلدة الجزيرة

إنها فى جرجا ولها ثلاثمائة تابع، تغل مائتى كيس، ويتحصل من قراها عشرون كيسًا وعشرة آلاف أردب من الغلال، وحسابها فى ديوان جرجا، وهى قضاء يدر مائة وخمسين أقجه فى كل مدة ثلاثمائة كيس يحصلها وليس لها عسكر من سبع فرق، ولا يوجد بها أغا للغلال ولا نقيب ولا مفتى إنها قصبة يسكنها الكاشف، وليس فيها إلا جامع ومقهى ومبرة وسوق ولكن فيها كثير من الضرائح، وأسماء أصحابها لا ترد على خاطرى، ولقد قرأت لأرواحهم سورة يس، ووهبت ثوابها لأرواحهم الطاهرة، تقبلها الله تعالى، ثم ركنت إلى الراحة ساعتين وبعد زوال الحر فى وقت الزوال قمنا ومضينا لمدة ثلاث ساعات وبلغنا سوهاج.

أوصاف قصبة سوهاج

إنها فى حكم جرجا، ويتحصل منها خمسون كيسًا وألف أردب من الغلال، وتضم ثلاثمائة قرية، وهى تمد جرجا بالغلال وأغا غلالها يقيم فى جرجا، ولقراها الستين

قاضٍ شرعى، ويتحصل منها عشرة أكياس فى العام، ولقربها من جرجا ليس لها عسكر من سبع فرق ولا مفتى ولا نقيب إنها قصبة جميلة قائمة على ربوة رملية بها بيوت ذات أسوار كأنها أسوار القلاع، وبيوتها ألفان ومائة وستون بيتًا من كبير وصغير وهى بيوت متعددة الطوابق وبها ست عشرة محلة، وستة جوامع، وخارج هذه البلدة من الناحية القبلية جامع السلطان أكراد وطوله وعرضه خمسون خطوة، وبه اثنان وثلاثون عمودًا وعلى يسرة هذا الجامع على بعد عشرة خُطَى منارة عالية جميلة، وللجامع بابان جانبيان وباب للقبلة، وبالقرب من قصر الكاشف جامع السلطان أيبك التركمانى، وفيه سبعة أعمدة منقوشة تحمل سقفًا منقوشًا ومنارة مُنْهدِمةً، إنه جامع قديم، وهى عجيبة الشكل، ولم نشاهد جوامع أخرى، وبها خمسون محرابًا مع الزوايا وثلاث تكايا بدوية وسبعة عَلَوِيَّة وثمانية برهانية، وفى سبع زوايا مدارس، وبها عشرون سبيلاً عذبة الماء واثنا عشر مكتبًا للصبيان وست وكالات وستة خانات منها خان سليم الكاشف وخان كشك أوغلى، كما أن فيها حمام ومائة دكان ولا وجود فيها لسوق للحرير، وبيوتها بهذا القدر وهى قليلة العمران وليس بها قصور عظيمة، والفقراء فيها كثير، ومئات النخيل، والحدائق فيها قليلة وإذا ما اشتدت بها الريح ثار الغبار، وخبزها جيد كما أن شمامها طيب وبساتينها كثيرة وأرضها خصبة وإن الكيلة تغل خمسين كيلة من الغلال وفولها وفير.

بيان زيارتنا لقطبها العظيم

هو الفاضل العالم أبو القاسم، وقبره يزوره الناس ليل نهار، وخرجنا من هذه البلدة وعبرنا النيل ومضينا شرقًا وغربًا وجنوبًا وشمالا، وذلك لأن تخطى التُّرع والخلجان كان مستحيلاً، لذلك اتجهنا فى الطريق يمينًا وشمالا، وتحملنا مشقة شديدة طوال سبع ساعات وبلغنا قصبة المنشية.

أوصاف قصبة المنشية

يحكمها كاشف وبها مائتا قرية ويتحصل منها ستون كيسًا وأحد عشر أردبًا من الغلال، ولها من التوابع مائة، وليس بها عسكر من فرق أربع ولا مفتى ولا نقيب

وأعيان أشراف وأغا الغلال يسكن جرجا، وهى تضم سبعًا وستين قرية، وعلى بعد خمسمائة خطوة من النيل ألفا بيت وسبعة عشر محرابًا وثلاثة خطب إنها قصبة جميلة، وفى سوقها جامع السلطان محمد أكراد وطوله وعرضه أربعون خطوة، وفى أركان حرمه الأربعة أعمدة وفى داخل الجامع اثنان وثلاثون عمودًا تحمل سقفًا مزخرفًا وبه ثلاثة محاريب وعلى باب منبره الخشبى كتب تاريخ هو:

(أمر بإنشاء هذا المنبر المبارك محمد بن أبى بكر فى شهر رجب سنة أربع وثلاثين وسبعمائة)

هذا هو محمد أكراد الذى أقام على قبر الإمام الشافعى فى مصر قُبَّة وهو مدفون إلى جانب الإمام الشافعى، وليس فى هذه البلدة جامع كبير سوى هذا الجامع علاوة على المساجد المعمورة فيها كما أن فيها حمامًا وخانين وسبعة أسبلة، وثلاثة مكاتب للصبيان ومائتى دكان وسبعة مقاه، وجمال جوها يشبه جو حدائق أرض الروم، وأهلها يحبون الغرباء ويكرمونهم، وغادرناها وانطلقنا جنوبًا على ضفة النيل واجتزنا مزارع وبساتين الشمام، وبعيدًا عن النيل أرض ذات نخيل، وقرى وحدائق وساقية، وعبرنا زوايا بها أشجار وارفة.

أوصاف مدينة عظيمة هى عاصمة الصعيد القديمة وهى مدينة جرجا

اسمها مدينة دهليز حبش وبانيها هو طوطش بن أبى القبابطة بعد الطوفان وهى مدينة عامرة عظيمة، ثم آل الحكم بعده إلى ابنه جرجيس وقد أنشأ مدينة جرجا وكأن شداد هو بانيها لقد كانت حديقة إرم، ولذلك وقع الخطأ فى اسم هذه المدينة فقالوا جرجا والصواب أن يقال جرجيس وهى تغل ستة أحمال من المال للسلطان وهى ملحقة بالخدمة السلطانية مع مكة والمدينة وآستانة، ومنها أمير الحاج، وله منصب عظيم وكل قرى جرجا عامرة ولكن ألفًا وخمسة وسبعين من قراها خاصة بغلال الدولة، وهذه القرى تغل فى العام ثمانين ألف أردب من الغلال، ولكن جرجا تدر مائة وستة وثلاثين ألف أردب من الغلال، ويفيض لوالى مصر مائة وثمانون ألف أردب عدلاوة على ما يدخل تحت حكم جرجا، أما من القرى التى فى الإقليم فيحصل منها مائة وأربعون باره

إنها بلدة وفيرة الغلال، ويحصلها ضابط الحاكم وهى وقف، ويجرى منها الرواتب على جامع الأزهر وغيره من السلاطين، وأمير ميران جرجا يضع يده على هذه الأوقاف أما إذا ما ظلم ففى اليوم الثالث يعترض على ظلمه علماء مصر ليمنعوا الظلم، وليس فى إقليم جرجا تيمارات ولا زعامات، إنها قرى سلطانية وأوقاف، ويبقى لحاكم جرجا بعد المصروفات ثلاثمائة كيس ولكن حاكم جرجا المغفور له على بك تحصل لنفسه على مئات الآلاف من القروش لنفسه فرضها على الأهالى، وهذا صحيح لأننا نظرنا فى دفتر خانه جرجا وفى الإيرادات والمصروفات، لأن فى إقليم جرجا سبعة وثلاثون كاشفًا وفى إقليم جرجا واحد وثلاثون قضاء، وبها ستة آلاف ومائة وسبعون قرية عامرة، ولكن حسب حساب قرى الأوقاف، ويأتى مشايخ العرب إلى ديوان جرجا مرة فى العام ويجددون بيعتهم لحاكم جرجا، ويلبسون الخلع والثياب الحريرية، ويحصلون المال السلطانى الخاص بالعسكر، وينال شيوخ العرب هؤلاء من هذه القرى أحد عشر ألف رأس من الغنم ومائة ألف أردب من الشعير وخمسين ألف أردب من القمح وأربعين ألف أردب من البقلة، كما يقدمون إلى الحاكم الهدايا.

وقد تجمع للحاكم عشرون ألف أردب من القمح وأربعون ألف أردب من الشعير وزعها على الجند، أما ما تبقى من هذه الغلال فقد باعها، وطبق قانون السلف يقدم خمسمائة جواد من إقليمه، ويرسل كذلك من الهدايا ألف وخمسمائة جواد وسبعمائة أو ثمانمائة قافلة من الجمال ولتحصيل هذه الغلال يأتى فى كل عام خمسة آلاف حمار، ولجرف الترع والخلجان يأتى ألفا ثور، ومائتان من الخصيان وألف من المماليك غير السود كما ترد هدايا لا حصر لها، ورؤساء القبائل وشيوخ العرب وشيوخ البلدان، وجميع الكاشفين وبقية الأعيان يأخذون هذه الهدايا، وفى كل عام يأتى مالٌ وفير بلا حساب، أما المصروفات فهى خارجة عن الحساب ويتسلم باشا مصر كل عام سبعين كيسًا وأربعين من الخيل ومن هذه الخيول ما هو مُحَلًّى بالذهب وذهبى السلاسل وأربعين مملوكًا أسود وعشرة من الأحباش وهؤلاء المماليك جميعًا فى ثياب فاخرة، ويأتى مع هؤلاء الهدايا من ماء الورد والمسك والعنبر والكافور وسن الفيل وجلد التمساح، وآلة

الحرب، هذا كله ما يأتى على الترتيب لهؤلاء الغلمان السود ولهم كذلك عشرون جارية من بلاد الفونج إنهم يأتون فقراء خالين الوفاض ولكنهم يثرون بتلك الهدايا ومائة جمل بلدى وألف أردب من القمح، وألف أردب من عدس وألف أردب من قريك، وألف أردب من شعير، ويسلم هذا كله إلى باشا الغلال، وألف رأس من الغنم، وألف رأس من الحملان تصل إلى وكيل الخراج، ولوكيل الباشا فى كل عام عشرون كيسًا، وعشرة خيول، وعشرة من العرب، وخمسة من الطواشى، وخمسة جمال، وكلها تحمل السكر والعدس والبُنّ، كما تصل هدايا لا حصر لها إلى افندى الديوان ووزير مصر وسبعة عشر قائدًا، والحكام باشى والمشعل باشى، هؤلاء ينالون هدايا لا تَدْخل تحت حصر، وفضلا عن هذه الهدايا يتسلمون العيدية، كما تصرف رواتب وتعيينات إلى أصحاب المناصب ورجال الديوان والقواد وطوائف الجند المصريين فى جرجا ومن يتبعهم من جند الحراسة والأئمة والخطباء والمشايخ وتصل فى كل عام إليهم أربعة آلاف رأس من الغنم وعشرون ألف أردب من حنطة وأربعون ألف أردب من شعير، وفى كل يوم لهم عشرون ألف رغيف، يزن كل رغيف تسعة دراهم، وألف قنطار من الزيت وسبعون قنطارًا من العسل ومائتا حقيبة من البن ومائة سفينة خشبية، وآلاف من أحمال الجمال وهذه القرى هى التى تقدم هذه التعيينات وينال الجندى ثلاثمائة كيس علوفة، والجندى ينال مرتبًا شهريًا قدره مائة قرش وحامل البندقية خمسة قروش مرتبًا شهريًا، ورئيس الفرقة يتقاضى ألفى قرش وخمسة جياد فى العام، وعشرون من رؤساء الفرق ينالون ألف قرش وجوادين، أما الأوده باشية فيصرف لهم خمسمائة قرش وجواد واحد، كما يبذل العطاء للخدم وبناء على ذلك فإن نفقات وزير مصر ربما زاد عليها نفقات حاكم من الحكام، وهذا مقيد فى دهليز جرجا، وهو ديوان عظيم، وكل ما فى مصر من أرباب الديوان قدرهم فى ديوان جرجا وفيه أصحاب المناصب ولكن جميع كتاب الديوان من القبط لأن لهم عقل أرسطو، إنهم يشقون الشعرة دقة منهم ويحسبون أصغر الجزئيات فى الحساب فى قدرة ومهارة، وخلاصة القول طبق قانون السلطان سليم فلحاكم جرجا هذه الكيفية فى تدبير الأمور، ويكون الحساب قيراطًا قيراطًا ولكن هذا

المال الوفير يحصله الجند بالعنف، لأن الإقليم الكبير قد يكون أهله متمردين، والأموال التى فى ذمة العرب يحصلها منهم جيوش جرجا، والجند يطلعون على شأن كل بيت من بيوت القرى، وهم يحصلون منهم الغلال دون خوف منهم، ولا خشية ولا اكتراث بهم فبين هؤلاء العرب فتيان شجعان أولو بأس شديد ويسمون هؤلاء العرب الصبيان، وفى ديارهم مال كثير لأن بلادهم على حدود بلاد الفونج وعلى الجانب الشرقى من هذه البلاد يكون المسير على شاطئ النيل إلى بلاد الحبشة وعلى مسيرة شهرين جنوبًا بلاد البربر إن آخر قلعة على حدود مصر على مسيرة ثلاثة أشهر فى الصحراء بلاد الفونج، وثمة ولاية قرمانقه ومنها وعلى مسيرة شهر بلاد السودان، وفى الجانب الغربى على مسيرة ثلاثة أشهر بلاد فاس ومرانكوش وهذه البلاد خاضعة لحكم جرجا وأرض ملاصقة لحدود المغرب وطرابلس، والحاصل أن ولاية جرجا فى الإقليم الأول وله علاقة بالإقليم الثانى، إنها واسعة متراخية الأرجاء وغلاتها وفيرة وأهلها محبوبون وخيراتها وبركاتها كثيرة، ونهر النيل فى جرجا يجرى فى ترعها ماؤه عذب فرات، إنها أرض ملكية ما يسميه الغرب دهليز الحبش، ومعناه العرش الصغير لبلاد الحبشة، والعرب يملكون هذه الأرض الصحراوية، وقد حررنا هذا فى قضاء بنى سيف وسنحرر الباقى عند سياحتنا فى بلاد أخرى، ولوزير جرجا أغا عالى المنصب، وهو يأتى لتحصيل الغلال، ويسكن قصرًا شامخًا فى جرجا، وهو يلح فى طلب هذه الغلال، ثم تخزن هذه الغلال بعد تحصيلها فى مخازن على شاطئ النيل، ويأتى من مصر أغا المخزن ليحصلها فى ألف سفينة، وفى مصر العتيقة توضع فى مخزن يسمى مخزن يوسف، وأكوامها كأنها الجبال وينال منها جميع الجند جرايتهم وطوال ثلاثة أشهر، ومخزن يوسف هذا سر إلهى وللأغا محصل الغلال حمام وجوادان والأغا ينال على كل أردب بارتين ويأخذ عشرين كيسًا فى السنة ويسلم الباقى للباشا وهو خمسة أكياس ويمنح الكتخدا ويأخذ الكتخدا ثلاثمائة قرش ويأخذ الكتخدا من الباشا جوادًا على كل ثلاثة جياد وخصيا على كل ثلاثة من الخصيان، وهذا الأغا يأتى كذلك لاستعجال تحصيل الغلال، ويأخذ على ذلك كيسًا من المال وغلامًا أسود؛ وذلك لتحصيله للغلال ولا يأتى

جنود من استانبول إلى جرجا ولكن يأتى إليها من مصر الجند المعروفون بقبوقولو أى جند الباب وقائد الانكشارية وقائد العزب وجند من الخمس فرق لحراستها وتنظيمها، ولا وجود فيها لقائد انكشارية استانبول ولا نائبه، بل يرسلون جنديًا غير مرضيٍّ عنه من استانبول إلى مصر وفيها شيخ الإسلام على المذاهب الأربعة ونقيب الأشراف، ومحصولها فى العام عشرة أكياس ويتبعها مائة وثمانون قرية وفيها كثير من الأعيان والأشراف والتجار والملاحين والتجارين.

وثمة مرفق يسمونه مرفق القصير خلف الجبال على أنه ميناء مكة والمدينة فى السفن ولذلك كان معظم أهل جرجا من التجار والفلاحين.

وبما أن جرجا تقع فى وسط الإقليم الثانى فأرضها على عشرين درجة وسبعة وعشرين دقيقة وطول نهارها ثلاث عشرة ساعة وخمس عشرة دقيقة، وثمة أرض واسعة خالية بين جرجا وبين قلعة طولها ألف خطوة بعيدة عن غرب النيل وفى جوانبها الأربعة عشرون بابًا من خشب ولا خندق لها وعلى كل باب حارس ويوصد كل باب ليلاً، وبها قصور مكسوة بالجص وحدائق وساقية وحوض وشاذروان وجدران القصور مزينة وبها عشرة آلاف وثمانية وسبعون بيتًا بين كبير وصغير، وبها تسع محلات وثلاثة وخمسون محرابًا وأحد عشر جامعًا تؤدى فيه صلاة الجمعة إضافة إلى جوامع السلاطين جامع الميرميران، وفى السوق جامع طوله وعرضه ستون خطوة وهو يسمى جقور جامع، وبه ثمانية عشر عمودًا فى أطراف حرمه، عليها سقف منقوش وليس له قبّة وعلى باب منبره وهو من الخشب كتبت الآية الكريمة: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ....﴾ {الأحزاب: ٥٦}.

وفى السوق جامع السلطان، وطوله وعرضه ستون خطوة ويصعد إليه بسلم من ثلاث درجات، وبه خمسون عمودًا منقوشًا وسقفه منقوش ومزين ومذهب وله ثلاثة محاريب وثلاثة أبواب ويصعد إليه وينزل منه بثلاثة سلالم، وتحته ستون دكانًا، وفى حرمه دكاكين للحرير والأقمشة وفى هذه المدينة تباع سلع قيِّمَة، ومحلات بيع الأقمشة

لها أبواب متينة، وتوصد فى كل ليلة وعلى يمين هذا الجامع منارة ذات ثلاثة طوابق ولا يستطيع أن يصعد المنارة كل أحد لأنّها منحرفة ولوجود هذا الجامع فى السوق، والسوق مزدحمة فإذا انهارت ـ لا قدر الله ـ هذه المنارة هلك خلق كثير، إن الذى بناها ماهر، وحرم هذا الجامع مرصوف بالرخام وجدار القبلة من الرخام ومكسو بأحجار مختلفة جميلة، ومنبره من خشب مزخرف.

وفى السوق أيضًا جامع الأمير عثمان طوله وعرضه أربعون خطوة وليس له حرم، وله بابان جانبيان.

وفى غرب قصر البك وفى ميدان واسع جامع الشهيد سعيد محمد بك وهو جامع فوقانى وله ثلاثة أبواب ويصعد إلى كل باب منها بسلم يتألف من عشرين درجة إنه جامع جميل، إنه يشبه جامع رستم باشا فى استانبول وداخله مكسو بالقيشانى ومنقوش بنقوش مذهبة، وفى جوانبه الأربعة نوافذ من بللور، وله ثلاثة محاريب مزينة ومنبره ودكة مؤذنه من الخشب، وفى داخله أعمدة رقيقة، وفى الجانب الأيمن منه دهليز يفضى إلى دار ضيافة، فيها يستريح البعض كما يشتغل البعض بالعبادة وبما أنه جامع علوى فليس له حرم وصحنه مكشوف وفى داخله ثلاثون عمودًا منقوشًا مصنوعةً من شجر الدلب، فهى ليست حجرية وعلى يمنة المحراب كتب على لوحة من القيشانى:

(إن هذه حجرة الانكشارى محمد أوده باشى والسلطان مراد الرابع وقد صنعه عام ألف وثلاثة وأربعون).

وفى السقف كتب بالخط الجلى آية:

﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ﴾ [التوبة: ١٨].

وكتبت أيضًا أربعون آية تحيط بأركان الجامع الأربعة وعلى يسرة الجامع منارة جميلة وفى أسفله حوض وبه صنابير مذهبة وفى الجامع ستة مخازن، يضع فيها التجار سلعهم ودهاليز الجامع الستة تفضى إلى الطريق العام، وإن اللسان ليقصر عن وصف هذا الجامع ولا وجود فى مصر ولا فى الصعيد لمثله، وهناك أيضًا جامع اليوسفية وجامع

الفقـراء وجامع الشيخ عـبد السلام وجامع الـقائم مقام وحـمد بك وجامع المقـدم عبد الرحمـن وهذه الجوامع قـليلة الـزينة إنها لا تـعدو أن تكون عـلى الطرز الـقديم وهذه الجوامع يـؤمها كثـير من المصـلين وفى وسط المدينـة، جامع عـلى بك الجرجـى طوله وعرضه، خـمسة وأربعـون خطوة، وفى داخلـه ثلاثون عمودا مـن الرخام علـى يسرة المحراب المزخرف كتب على لوحة من الورق المقوى تاريخًا هو:

(ولأن حاكم جرجا أسد الله أهل الكرم ( )[1] زلفقار الأمير العالى صاحب الطبل والعلم، وقال كاتبه أن هذا البناء تم فى عام ألف وستمائة).

ومنبره من خـشب مزين، وعلى الباب الأيمن لـلجامع كتب تاريخ بـالخط الجلى هو سنة إحدى وسـتين وألف، وعلى الجامع منـارة من ثلاثة طوابق، وفيه خـمس منارات أخرى وإلى جانب الجوامع المذكورة مدارس وثلاثة دور لـتحفيظ القرآن وداران للحديث وثمانيـة عشر مكتبًـا للصبيان وسـبعة أسبلة وتـسع تكايا وألف ومـائتا ساقية وألـفا بئر وحمامان وأحدهما للفلاحين، وهو وبيل الجو، وضيق، وحمام غير ضيق، وفى السوق حمام على بك الميرميران وهو حمام ينشرح له الصدر لما فيه من مناشف وطاساته المذهبة وكل ما فـيه نظيف وأرضـه مفروشة بالـرخام وفى قبتـه زجاج وخدامه صبـاح الوجوه يخفون لخدمـة كل أحد فيه ولهم نواظر وكـأنها الخناجر، وفى هذه المدينـة عدة خانات وضيفان هذه الخانـات من التجار والمسافرين، وهى خان علـى بك وخان يازجى وخان موسى چاووش، وخان ممى كتـخدا وخان السكرى، وفيها أكثر من عـشرين ربعًا وهذه الربوع مساكن للأسر وفى المدينة ثمانمائة وستون دكانًا ولكن ليس فيها من يبيع الأقمشة بالجمـلة وفيها سـلع هندية وعـجمية ورومـية وكل الدكاكين الـتى أمام قصر عـلى بك الجرجى مزينة وفى سوق عـلى بك طريق رئيسىّ على جانبيه مائة دكـان مبنية بالحجارة ومسقوفة وفـيها سراجون[2] ولا وجود لسراجين فـى غيرها، وللسوق بابـان من حديد كأنهما بابـا قلعة يغلقهما البوابـون فى كل ليلة وليس فيها سوق لـلبز ولأن هذه السوق

(١) بياض بالأصل.

(٢) صانعو السروج. واحده سَرْج، وهو رَحْلُ الدابة. انظر: المعجم الوجيز، ص٣٠٨.

واسعة فـفى سقفهـا منافذ للـهواء، ويرش فيهـا الماء فى شدة القـيظ وفيها اسـتراحات ويستريح فيها الأعيان وهم يزجون الفراغ بـلعب النرد والشطرنج، وعلى بك وهو فاعل خير يسقى دواب الرائحين والغادين من التجار والزوار ولذلك أنشأ أربعين ساقية، وهى تدور كما يدور الفلك. كما تروى هذه السواقى الرياض والبساتين، وهذه السواقى تأتى بالماء من الآبار وإلى جـانب هذه الآبار فى جوانب المدينة الأربعـة ثلاثة آلاف بئر، وفى جوانب المدينة الأربع حدائق وبساتين، كأنها إرم ذات العماد.

وفى أرض جرجا كـنوز ودفائن وخبايـا كثيرة، وفيهـا الخبز الأسمر الأُقَّة مـنه بباره واحدة، والأردب من القمـح بقرش واحد، وأردب الشعير بعشـر بارات وثمن الخروف بخمس بـارات وفى رمضان بعشرين بـاره، وغنم جرجا مشهورة وكـل خروف يزن من أربعين إلى خمسين أُقَّة، وثمن العجل مائـة بارة، وثمن الحصان مائتا باره وثمن الجمل ثلاثمائة بارة، أما المماليـك البيض والأوانى النحاسية فغالية الثمـن، أما فى تركيا فثمن العبد الحـبشى بخمسة عـشر قرشًا أو خمسة وعشـرون قرشًا، وكبار أعيان هـذه المدينة وأرباب الديوان يـلبسون فيهـا السمور والأقمشة الـفاخرة والجُوخ، أما متـوسطى الحال فيلبـسون ثيابًا قصـارًا مبطنة، والفقـراء يلبسون بز أسـيوط، وأهل هذه المدينـة مسنون معمـرون، ومنهم من تجـاوز مائة وسبـعين عامًا وهم فـصحاء بلغـاء، كما أن شبـابها يتميزون بـرجاحة العقل وفتيانـها وفتياتها يتمـيزون بالجمال لاعْتِدَال جوها ولـهم لهجة خاصة بهم، أما النساء يتميزن بصحة العقل ولهن أسنان كأنها الدر وغدائرهن منتشرات وكأن وجوههن بدر التمام، وكل من شاهدهن تعلق قلبه بهن، كما أَنَّهُنَّ رشيقات القوام وإن وجد كذلك عجائز دميمات وساحرات خبيثات يستوجبن القتل وهن يسحرن الغرباء ويؤذينهن بسحرهن، وذلك أن السحر كان شائعا فى هذه الديار منذ عهد الفراعين.

منتجات ومصنوعات هذا الإقليم

يوجد بها الخـبز الأبيض كالورد الأبيض وفـطائر والكعك واللبن والـقشدة، وفريك القمح والسـمن والعسل والتمر والليـمون والسفرجل والعنب والـرُّمان والخوخ، والتين

الأبيض فيها ليس له مثيل فى بلد آخر ولكن إذا ما حملوا التين الطازج فى سلة إلى خارج المدينة فقد لذة طعمه، وهو سريع الهضم وهو مقو، وتنتج ثلاث مرات فى العام، وفيها الغنم والحملان كما أن دجاجها سمين كما تشتهر بخيولها وجِمَالها وسمكها، ومن مصنوعاتها الوسائد المصنوعة من الجلد كما يصنع فيها الأبنوس وسن الفيل والشطرنج ووبر الجمال وصوف الغنم وسجاجيد الصلاة والسفن، وفى جوانبها الأربعة مصاطب السوق تستحق المشاهدة وأمام قصر البك يحتشد جمع غفير من الرعاع والعرب وفى الديوان عديد من القاعات والحجرات وفى حديقة الديوان حوض ونافورات وسبل، كما أن ثمة طيور تصدح بأنغام عذاب.

بيان من دفن فى تراب هذه البلدة من الأولياء

أولا بالقرب من جامع على بك وفى نهاية دهليز بابه الأيمن قبر صغير للشيخ المكى وهو من أهل الطريقة البكرية، وحينما كان يحفر أساس هذا الجامع عثر على حجر مربع كتب عليه بالخط الكوفى:

(هذا قبر الشيخ محمد المكى سنة ١٠٤١، إن هذا العبد العاصى غادر تراب المذلة هذا وانتقل إلى أرض أخرى إنه مقامنا هو بيت الله ونحن نسكن بيت الله إلى أن تفنى هذه الدنيا).

وقد ظهر قبر هذا القطب أثناء بناء جامع على بك فنقل جثمانه من موضعه ودفن إلى جانب أساس الجامع ومنذ وفاته إلى بناء هذا الجامع ثمانمائة وتسعون عامًا وما زال جثمانه غَضًا وقد شهد على ذلك ألف وستون من الناس والكُلُّ يعرف كرامات هذا الولى ويقرأ عنها فى الكتب وهؤلاء المشاهدون كانوا يلتمسون منه البركات، كما دفن هناك الشيخ المَجْذُوب دهيش بن محمد، وخارج البلدة الشيخ عثمان الصنافيرى وبالقرب منه ابن تميم الدارى، والشيخ عبيد وقطب العالم الروحانى وحكمت المعدن الربانى الشيخ عبد السلام المقرى، والعالم النصيح ذو اللسان الفصيح الشيخ صبيح، والشيخ عباس، والشيخ بياض، وكذلك الشيخ عمر الحلوانى، وفى جامع الفقراء الشيخ

منصور العالم، وبجواره الشيخ حسن السعدى ومحمد أغا وفى الزاوية مقام الأربعين والشيخ عبد السلام وبجواره الشيخ عمر الحورانى وبجواره زاوية مقام الأربعين رحمة الله عليهم أجمعين.

ولله أحمد أنى قرأت الفاتحة لهم جميعًا وطلبت البركة من أرواحهم الشريفة وقد قضيت عشرة أيام هناك فى بهجة وسرور وقد حملت فرمان إبراهيم باشا إلى حاكم جرجا وفيه ذكر لغرق سفينة الغلال وحملته إلى الديوان وبناء على شهادة الأهالى أخبرتهم بأن سفينة الغلال غرقت وأثناء أخذنا من ربان السفينة خمسمائة قرش، وقدمنا للباشا خمسة أكياس ونلنا من حاكم جرجا أوزبك بك كيسًا وقماشًا من المخمل وجوادًا وهجينين، وفَرْوَ سمور كما نال كل خادم منا مائتى قرش ومعنا عشرين من حَمَلَةِ البنادق فودعنا أعيان البلاد جميعًا وأرسلنا إلى الباشا جوادًا وعشرة قروش.

بيان القرى والقصبات من جرجا إلى إسنا وأسوان والشلالات

وقد لقينا مشقة شديدة من شدة القيظ فى رحلتنا من جرجا إلى إسنا وأسوان والشلالات وأبريم وصاى وبربرستان وفونجستان، وقد مررنا فى طريقنا على منازل وقرى وقصبات أولا فى شهر صفر من عام ألف واثنين وثمانين فى اليوم الأول من شهر صفر وفى معيتنا فرسان وعبيد اشتريناهم ومضينا لطياتنا وركبنا سفينة فى النيل ودخلنا ولاية شرقستان وفيها يسمون جرجا غربستان، وإقليم شرقستان فى حكم أبى يحيى، وله عشرة آلاف فارس يحملون الحراب وبلغنا مدينة:

أبو خالد

ونزلنا فيها ضيوفًا ليلة، وهى بلدة صغيرة بها مائة بيت، ومضينا فيها إلى شيخها أبى يحيى وشرفنا بصحبته، وهو من أبناء الشيخ خالد، وإذا لم تضع امرأة حملها وغطت رأسها بسراويل الشيخ وضعت، ويقول بعضهم إن هذه السراويل المذكورة ليس للشيخ إنها خاصة بخالد بن الوليد، وقد آلت إلى الشيخ بالوراثة ـ والعهدة على الراوى ـ لأن هذه السراويل وما لها من خاصية معروفة مجربة أحضرت هذه السراويل من التكية فوجدتها سراويل حمراء ملفوفة، ويقال لقوم الشيخ يحيى بنى خالد إنهم قومٌ فى نعمة

ورغد كما أنهم مطيعون منقادون، وخيولهم عجيبة، وفى الجهة الشمالية من إقليمهم مساحة واسعة من الأرض، وفى الجهة القبلية السويس، وعلى شاطئ بحرها قلعة ميناء القصير وفى الجنوب مدينة مشا والشمال قضاء أخميم، وهى حدود صغيرة إلا أن قراها عامرة كثيرة المحاصيل فيقع هذا الإقليم بين بحر القلزم والنيل وهو إقليم واسع ومن الصباح اتجهنا إلى الشيخ يحيى بكيس كان قد أرسل معنا أمانة من أغا غلال جرجا إلى الشيخ يحيى، ومضينا مسيرة خمس ساعات على شاطئ النيل فبلغنا:

بلدة حمادى

وهى على ضفة النيل وتحوى مائتى بيت وجامعًا، ويسكنها أولاد الشيخ حمادى وهو من ذوى قربا الشيخ يحيى، وهم يسكنون هنالك كذلك وفيها ألف فارس وأبو يحيى من الهوارة واجتزناها وبلغنا:

بلدة مزادى

وبها ستون بيتًا وليس بها جامع ومضينا على ضفة النيل سبع ساعات وبلغنا قصبة بلابش.

أوصاف قصبة بلابش

إنها فى حكم جرجا وكاشفية قوص ويتبعها مائة وسبعون قرية تدر أربعين كيسًا من المال وألف أردب من الغلال، وكلها عسكر وهى قضاء فوه، ويأتيها مرة فى الأسبوع نائب يحكمها، وبها جامع ودار ضيافة وستون بيتًا ولا آثار لعمران سوى ذلك وهى كثيرة المحاصيل، وهم يزرعون نباتًا يشبه شجرة ذات سوق ويعلو حتى يبلغ قامة الإنسان وله نورٌ أصفر مثل النرجس، وله رائحة طيبة، ويجمع فى الربيع ويصدر إلى فرنسا ليصنع منه الصبغة، ويشترى التجار القنطار منه بمبلغ ستين قرشًا، ثم يكتمل نوره ويمتلئ بالبذور وتجمع هذه البذور ويباع الأردب من هذه البذور بثلاث قروش ويستخرجون منها فى مصر وغير مصر الزيت، وزيت السمسم زيت لذيذ المذاق وله رائحة طيبة مثل الكافور والمسك والعنبر وإذا وضع فى القناديل انبثقت منه شعلة مضيئة.

وتجاوزنا هذه القرية، وفى الجنوب على ضفة النيل رأينا جبلاً على ساحله قرى عامرة وفى هذه القرى رأينا نوعًا من الدوم، وفى الطريق إلى الشمال رأينا بلدة تسمى بلد الدوم، وفيها أخشاب ترتفع فى السماء معوجة وغير معوجة لكنها أشجار دوم، ولكن هذا النوع من الدوم كل عذق منه يزن قنطارًا أو قنطارين، وكل دومة فيها تزن أربعين أو خمسين درهمًا، وهو دوم أحمر اللون وحجمها فى حجم القبضة وهم يستأصلون من الدوم شوكها ويضعونها فى حق فيه الفلفل الهندى والتبغ فيصبح هذا الدوم لذيذ المذاق والفلاحون غالبًا ما يأكلونه.

أوصاف قصبة فوه العليا

هى قصبة معمورة بعيدة عن النيل فيها ثلاثمائة بيت وهى تحت حكم جرجا، وهى مع توابع قوص، وبها مائتان من الجند المعروفين، بـ (سكسان) ويتبعها تسعون قرية تدر أربعين كيسًا ويتحصل منها على ثمانمائة أردب من الغلال، وليس فيها جند من الفرق الأربعة ولا قائد وبها دار ضيافة عظيمة، وبها جامعان كبيران وسبع زوايا ومقهيان، وليس فيها حمام ولا خان ولا سبيل ولا سوق، ولكن فيها مكتبين للصبيان، والكاشفون يقيمون بها فى خيام وحتى الخيام التى يقيم فيها الكاشفون تقام فى الرمال، وفيها أعمدة قديمة منقوشة، وعلى حد قول المقريزى كانت هذه آثار قصور يسكنها الفراعين فى الزمان الخالى، أما فى يومنا الحاضر فليست سوى صحراء لا أثر فيها للعمران ولا وجود لروضة ولا بستان، وكثير من أهلها مفاليس، ووجوههم شاحبة أميل إلى الصفرة، وجوها ثقيل وفيها ضريح الشيخ إبراهيم نورى، وله قبر صغير إلى جانب جامع كبير، وله مناقب مذكورة فى كتاب الطبقات للشعراوى وتجولنا بعد ذلك بين قرى وفيرة المحاصيل بالقرب من النيل حتى اقتربنا من السويس وبينهما مسيرة ثمان ساعات ونصف، وكما عبرنا أكواخًا من القصب يسكنها العرب وبعد سبع ساعات بلغنا قنا.

أوصاف مدينة قنا

مدينة قنا فتحها عمرو بن العاص وبعد عمرو وفى خلافة عثمان وحين كان محمد ابن أبى بكر واليًا على مصر قدم قنا، وجعلها عاصمة ثلاثة أعوام، وقد أصبحت هذه المدينة بعمائرها مصر الثانية، وأقيمت بها قلعة بالقرب من ميناء القصير فى تلك الفترة

ومنها كانت ترسل الغلال إلى جدة، وهى ميناء مكة، وينبع وهى ميناء المدينة المنورة، ومنذ هذا العصر وأهل قنا يشتغلون بالتجارة، وفيها تجار عظام وأكثرهم من أشراف مكة والمدينة، ولأن قنا ميناء صغير فهى كاشفية تتبع قوص وهى التزام يدر مائة كيس، ليس فيها جنود من الفرق الأربع ولكن فيها انكشارية وعزب من مصر.

ولهذه المدينة مفتى على المذاهب الأربعة ونقيب للأشراف لأنها مليئة بأشراف مكة وهى قضاء يدر مائة وخمسين أقجه ليس إلا ولتجارها مخازن على شاطئ النيل وتتكدس فى هذه المخازن شتى أنواع السلع لأنها ميناء مكة والمدينة والحبشة واليمن وعدن، ويأتى الأشراف من الحجاج ويقضون فيها أربعة أو خمسة أيام، وهم فيها يسيرون على الأقدام أو يركبون الحُمُرَ أو الجمال، ومنها يصلون إلى ميناء القصير، وكراء[1] الحمار خمسة قروش، ويركبون منها السفن ليصلوا فى ليلة أو ليلتين إلى ميناء ينبع، وبعد ذلك يبلغون مكة فى خمسة أو عشرة أيام بإذن الله، ويكلفهم الحج ديناراً واحداً وهناك يلتقى جموع غفيرة من الناس، ولكن الطريق وعر عسر.

وفى جنوب قنا على ساحل النيل على مسيرة خمسمائة خطوة أرض رملية بها قصور شامخة ومسافة تبعد جنوبًا عن النيل قدرها ثلاثة آلاف وستمائة خطوة وهى مدينة جميلة وجوانبها الأربعة لها أبواب، وعليها حراس، ويغلقونها ليل نهار وفيها عشرون جامعًا، وسبع منها خطبة علاوة على كثير من الزوايا وفيها الجامع الكبير يَؤُمُّهُ كثير من المصلين ويسمونه كذلك جامع أمير المؤمنين لأن عمرو بن العاص حينما فتح هذه المدينة أقام هذا الجامع للخليفة عمر بن الخطاب، وطوله وعرضه ستون خطوة، وفى داخل الجامع خمسون عموداً من الرخام يحمل سقفًا وفى وسط حرمه خمس نخلات نبتت من جذر واحد، لقد زرع عمرو هذه النخلات بيده ومحرابه ليس خاليًا من النقوش ومنبره من خشب وعلى منبره تاريخ هو:

(بسم الله الرحمن الرحيم، أنشأ هذا المعمارات المباركة والجامع الأمير حسن أغا فى تاريخ السابع عشر محرم سنة ١٠٧٩).

(١) كراء: أجرة.

وقد تخرب هذا الجامع على مر الأيام وقد أنفق حسن أغا وهو ملتزم مدينة قنا من صلب ماله عشرة آلاف قرش لتعميره وترميمه ولا وجود لجامع كبير فى تلك المدينة سوى هذا الجامع، وبالمدينة سبع تكايا ومدرستان وعشرة مكاتب للصبيان وعديد من الوكالات وسبع مقاه ومائة وخمسون دكانًا وحمام وسوق للغلال وميدان، ويقام فى كل أسبوع فى هذه المدينة سوق يأتى إليها جمع غفير من الناس من سبعين قرية بجوارها فيبيعون ويشترون.

ولاعتدال جوها نساؤها سمراوات جميلات ولقربها من الحبشة فإنهن من نسل الجوارى الحبشيات، وإنهن يتحلين بالأساور والخلاخيل كما يلبسن القمصان الحريرية، ولهن عيون كعيون الظباء، وهن يلففن قوامهن بالحرير الأسود، وبعضهن خليعات يرقصن فى المقاهى وليس هذا عيبًا عندهن، أما السيدات العفيفات منهن فيختلفن عنهن وهن لا يغادرن من منازلهن إلا إلى المقابر فى يوم الجمعة، والرجال يلبسون العباءة وتشتهر المدينة بكرومها وعنبها المسكى وعناقيده تتدلى من السقوف وعنب قنا ينضج قبل عنب مصر والفيوم بخمسين يومًا، وذلك أنه فى أرض رملية وجوها شديد الحرارة، أما الخوخ فتزن الواحدة منه مائة درهم، وفيها المشمش طيب وحمامها مشهور ويأتى التجار من مكة ويأخذون الحمام من التجار ويضعونه فى أقفاص ليأخذوه، ويطيرونه وهو مقيد الجناحين فيطير ويبلغ فى مدة تتراوح بين ساعة إلى خمس ساعات ثم يعود مرة ثانية إلى قنا ويضرب به التجار للناس المثل فى مَنْ يمضى إلى حيث يريد فى طرفة عين، ويقولون أأنت حمام قنا، وفى قنا يطيب عبد اللاوى، وهو نوع من الشمام وأكل لبه وبذره مدر للبول كما يطيب البطيخ والشمام والخيار والعجور فى هذا البلد.

بيان ما فى هذه المدينة من قبور الأولياء

فى الجهة القبلية من المدينة وفى الحدائق قبر الشيخ عبد الرحيم القناوى وهو الملقب بين الأولياء والصلحاء بشفيع الملّة وقد ذكرت مناقبه على التفصيل فى كتب تراجم الأولياء وطبقات الشعراوى وله بابٌ يفضى إلى الجهة الغربية وعلى صندوقه الشريف زجاج رقيق وعليه سقف منقوش كما أن صندوقه مستور بستر أحمر وعلى عمود رخامى أمامه تاريخ مكتوب هو: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ....﴾ إلى آخر هذه الآية الكريمة رقم ٢١ من سورة التوبة، وبعدها (انتقل العبد الفقير إلى عفو ربه القدير الشيخ الإمام الحسينى، النسيب علم الأعلام، وبركة الإسلام وغياث الأنام، قطب الدين عبد الرحيم الحسينى، وتوفى يوم الجمعة بعد صلاة الصبح فى يوم ( )[1] من شهر صفر سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة هجرية قدسنا الله بسره العزيز.

وعند قدمه المباركة الشيخ أبو الحسن وبجانبه الشيخ سيد محمد اسكندرانى وبجواره الشيخ عبد الله القريشى وفى ركنى الشيخ عبد الرحيم من خلفاء الغار الشيخ إبراهيم أبو الدنيا أما سبب تسميته بأبى الدنيا أن ابنًا له عندما انتقل إلى رحمة الله، ولم يكن معهم درهم واحد لتجهيزه وتكفينه فانشقت الأرض عن كنز عظيم، وحمل الأهالى ما فى الكنز من مال طوال ثلاثة أيام، فاستغنوا بهذا المال ولذلك لقبوه بأبى الدنيا وقد عمرت قنا بهذا المال المستخرج من ذلك الكنز وبجانب هذا الشيخ العظيم ابنه الشيخ على الصابرى ابن الشيخ إبراهيم أبو الدنيا، وأبوه كذلك قطب عظيم، ولم يضع يده على هذا المال، إنه كان رجلاً نزيهًا، إنه من ذوى قرابة الشيخ الزبيرى وقد توفى أيام الفتح زمن الصحابة الكرام، والشيخ عبد النبى والشيخ سيد محمد والشيخ محمد الحسينى والشيخ سيد يونس، وفى المدينة الشيخ عمر النسيم إنه قطب عارف بالله وله مناقب لا تدخل تحت حصر وخلف جامع عمر فى الركن الأيسر يرقد فى قبر متصل بجوار الجامع الشيخ محمد الأساسى وقد اعتزل أربعين عامًا فى ركن وكان يغادر هذا

(١) بياض فى الأصل.

الركن للتبول والتغوط ليس إلا، وكان ينام ساعة واحدة، ولم يشاهد ماشيًا، وقضى عمره أصم أبكم، وقد شغلته الطاعة والعبادة عن كل شيء فى الدنيا وقد حكى البكوات الذين اختلطت بهم قالوا، إنهم كانوا يزورونه كَسِيفِى البال ولكن المَسرَّةَ كانت تدخل قلوبهم بزيارته وقد دفن فى هذه المدينة آلاف من الصحابة رحمة الله عليهم أجمعين، وفى هذه المدينة يسمون العرب العبابدة، وهم يشكلون قبيلة تسكن تلك المدينة، إنهم قومٌ يعيشون فى نعيم وهم شجعان وعددهم ستة آلاف، وهم على الدوام يحملون الغلال إلى ميناء القصير وهم يمضون فى أرض رملية حيث يقطعون مسافة فى الصحراء والجبال وتحت حرارة الشمس وفى القرى يتناولون الإفطار، وتجاوزناها بعشر ساعات فبلغنا القصير.

أوصاف قلعة ميناء القصير

إنها على البحر الأحمر وهى بناء صغير وحصين، ومحيطها خمسمائة خطوة، وأول من بناها محمد بن أبى بكر، وبعده الظاهر بيبرس والسلطان قايتباى وقد عمرها، وهى قائمة على صخرة وليس لها خندق وبابها يتجه نحو الغرب ولها رئيس ومائتان من الجند وعتاد سبعة عشر مدفعًا صغيراً وجامع وعشرون غرفة ومخزن للقمح وغرف للضيافة، ولا وجود فيها لحَمَّام وليس فيها خان ولا سوق، ولا أثر فيها لحديقة، إنها أرض جزيرة ولها مرفأ عظيم ومرفأها يأمن الرياح جميعًا، وفى الجهة المقابلة ميناء ينبع، والوصول منها إلى المدينة فى يومين وميناء مكة توجد على مسيرة ثلاثمائة وستين ميل ومن جدة إلى مكة ثمانية أو تسع ساعات، وتأتى السفن من الحجاز على الدوام إلى القصير، وهذه السفن تبحث عن الغلال والعبابدة يبيعون الماء بالقطرة الواحدة وعندما قدمت هذه القلعة شكى لى أهلها من شدة الظمأ، وبالقرب من القلعة دليل على وجود الماء، ثم ركبنا جيادنا وقد بلغنا مكانًا يسمى جيرك وحقيقة الأمر أنه مكان فيه ماء وعرضت شكوتهم على إبراهيم باشا وزير مصر وأوصلت أعيان القلعة إلى إبراهيم باشا فرصد عشرة أكياس، ومع أغا موثوق به فأمر هذا الأغا المعتمد عليه بحفر بئر، وأقام عنده مصطبة وقصراً فنبع منها ماء عذب، ولله الحمد أن هذا تم بمسعى من هذا الرجل،

وبذلك تخلص من الظمأ الغادون والرائحون والحجاج والمقيمون فى تلك القلعة والدال على الخير كفاعله، وقد جاء فى أحد التواريخ ذكر قلعة القصير والبئر والقصر الذى فى جانبها وتاريخ بناء هذا القصر هو عام ١٠٨٣.

ومضينا تسع ساعات فى طريق دلنا عليه العبابدة وصلينا الصبح على شاطئ النيل وتناولنا طعام الإفطار فى بلدة تسمى:

انبوطه

واسترحنا ثلاث ساعات، وهى بلدة على بعد ثمانى ساعات من قنا بها خمسون بيتًا، واجتزنا على شاطئ النيل قرى بيوتها مبنية بالقصب وفى خيام العبابدة شربنا لبن النوق، وبعد ثلاث ساعات بلغنا مدينة قوص.

أوصاف مدينة قوص القديمة

أقامها شداد بن عديم بن يود فى عهد شيرين قفطريم، ومن أبناء قفط من يسمى قوص وهو الذى بنى المدينة لما آل إليه الملك، وفى عام ١٤١٤ استبحر العمران فى مدينة قوص، ففى هذا الزمان كان بالقرب من قوص مدينة خربة ومنها فر أهلها من خشية مرض الطاعون إلا أنهم لم ينجو من الطاعون وهلكوا مع أهل قوص، ومنذ هذا العصر لم تعمر قوص، ويقول بعض المؤرخين إن شداد بناها وكانت حديقة إرم، وقد اختلف العلماء داخل مصر وخارجها فى بناء هذه المدينة. وعلى حد قول كعب الأحبار لم يجتمع العلماء على رأى فى مَن هو بانى قوص إنها مدينة طيبة الهواء يعجز الوصف عن عظمتها إن جوها هو جوّ حَلَب أو جو مَعَرَّة النعمان، وقبل فتح مصر استولى عليها الأسود بن مقداد من القبط، وبعد الفتح بحثوا فى أرضها عن كنوز ووجدوا عمودًا منهدمًا، ولوجود العقارب بها فَرَّ العسكر وظلت المدينة خربة إلى أيام عبد الملك بن مروان من خلفاء بنى أمية، وسبب خراب هذه المدينة طوال تلك الفترة هو كثرة العقارب ولكن العقارب لا تصيب أهل هذه المدينة بضرر ولقد شاهدت أنا هذا العمود المنهدم، وقد رسم عليه صورة عقرب وقد كتب أسفل العمود سطور، ويراه كل من يمضون فى

الطريـق لأنه على الطريـق العام، وهذه المدينـة فى حكم جرجـا ولها كاشف له مـائتا جندى، كما تحوى ستين قرية ويتحصل منها أربعون كيسًا وألف أردب من الغلال ولكن ليس بها مستحفظون ومفتى ولا نقيب أشـراف وإنها قضاء به ستون قرية ويتحصل منها فى كل عام ثلاثة أكياس وهى مدينة تبعد عن النيل بمسافة بعيدة وبها ثمانمائة بيت واسع ولكن ليس فيها كثير من القصور ولا البـيوت الجميلة، وبها ستة محاريب وأربع خطب وبالقرب من السـوق جامع بناه المستكفـى بالله حين نفى فى هذه المدينة إنـه جامع بالغ الغاية فى الـكبر وطوله وعرضه مائة خطـوة، وبه سقف قديم يقوم على مـائتى عمود، كما أن بها جـامعين آخرين لا علم لى بهـما إضافة إلى الزوايا، وبها وكـالتان وخمس مقاه وستة مكاتب للصبيان وثلاثون سوقًا صغيرة وعشرون سبيلاً ولكن ليس فيها حمام ولا مدرسة وأغلب ما فى حدائقها نخيل الدوم، ونتـيجة لذلك فإنها ليست مدينة عامرة كما أن جوها ليس مقبولاً ولذلك فأهلها صفر الوجوه.

بيان ضرائح هذه المدينة

لما آلت الخلافة فى مصر للمستكفى بالله سليمان بن الحاكم بأمر الله العباسى بَنَى بها جامعًا كبيرًا كما أن أتباعه من العباسيـين سكنوا قلعة الكبش، وكان الحل والعقد فى يد الظاهر بيبـرس، ولكن اسم المستكفى كان يـضرب على العُمْلة ويذكر اسـمه فى الخطبة وقد وقع الصراع والنزاع بين ذوى قرباه كما وقع النفـاق بينه وبين الظاهر بيبرس، فنفى الظاهر بيـبرس أهل المستكفى وأقـاربه إلى تلك القلعـة، وأمر المستكفى جمـيع المغاربة والهنود الخبراء بالكشـف عن كنوز، فاستخرجوا مطلسمات مختـلفة من عهد شداد بن عاد ولكن المسـتكفى توفى فى عام ٧٠٣، فدفـن فى قبر صغير، ودامت خلافـته تسعًا وثلاثين سنة، وعمره خـمسون سنة وهذا مسطورٌ على قبـره، وأخو الحاكم بأمر الله هو إبراهيم الواثق بالله وبجـانبه محمد عطاء الله بن إبراهيم الواثق بـالله، قد نفاهما الملك الصالح إلى قوص وهما مدفونان بجانب قبر المستكفى بالله، ولحكمة الله أنهما نفيا إلى قوص معًا، فقد نفاهما الملك الصالـح بن الملك الناصر إلى قوص وهؤلاء هم آل عباس

المدفونون فى هـذه المدينة، وهذا ما قيل فى شأنـهم وفى المقبرة التى بجانـب ضرائحهم الشيخ ظاهر والشيخ كاظمى والشيخ نور الدين الشيرازى والشيخ علام الدين البصراوى وهؤلاء الأعيان كانوا من حاشية المستكفى الـذين هاجروا معه من بغداد إلى مصر وبلغ مدينـة قوص، رحمة الله علـيه، وقد عبرنـا على شاطئ الـنيل أراضى رملـية وأراضى صخرية وأراضى خربة لمسيرة ست ساعات، وبلغنا ولاية أشمون.

أوصاف ولاية أشمون (الأقصر)

إن بيطر بن حام بنى مدينة قديمة تسمـى أقصرين بعد الطوفان وهو الأخ الأكبر لسام ويقال إن بـيطر هذا أبو الـقبط، ومن نسـله ولد توأمـان أحدهما أشمـون ريف، وآخر أشمون جاو وقد ولدا فى مـكان واحد وأرسلهما بيطر أبوهما إلى إقـليم مصر، ولذلك سمى الإقليـم أشمون وقد عمرت هذه المدينـة، وقد بنى الأخوان قصريـن على شاطئ النيل، وبعد بناء هذين القصرين سميت المـدينة القصرين، أى المدينة التى تحوى قصرين والكلام على هذه المدينة أولى به أن يكون وجيزاً، وهـى تتبع كاشفية جرجا، وبها مائتا جندى ويتحصل منها أربعون كيسًا، ولا يوجـد بها مستحفظان ولا شورباجى ولا مفتى ولا نقيـب أشراف ولا أعيان وقد كـانت مدينة عـظيمة علـى شاطئ النيـل تحوى ألف ومائتى بيتٍ، وبـها كثير من الأبنية العاليـة وكثير من القبور، ولذلك تبقـى منها أعمدة مطمورة فـى الرمال، وهذه الأعمدة بقـايا لعمائر أقـامها سلاطين مصر الـقدامى، وفى جامع السليمانية أعـمدة من هذه المدينة نقلها ربان الإسكندرية إلى جامـع السليمانية فى استانبول وقد أنعم عليه بخلعة وألف دينار، وقد نقلت هذه الأعمدة فى سفنٍ فى البحر إلى استانبـول، وقد علمت أن أعمدة جىء بهـا إلى ميدان الوفاء وهذا ما سـمعناه من والدنا رحمة الله عـليه، ولكن هذه المدينة لـيست معمورة وبها عشـرون محرابًا وثلاث خطب، وبها أسواق صغـيرة وجامع فى وسط السوق فيه جمع غفـير من الناس كما أن بها خانًا وحمامًا والعـديد من الزوايا المعمورة ومكتبًا للصبيـان وسبيلاً ومقاهى، وجوّها غاية فى اللطف وأما أهلها ففى غاية الفقر.

زيارة ضريح الشيخ أبى الحجاج

إنه مدفون فى مغارة بالقرب من جامعه، وله كرامات كثيرة، وإنه قطب عظيم وليست لمناقبه نهاية، وهو الأخ الأصغر للشيخ عبد الرحيم القناوى الذى دفن فى مدينة قنا وله ملك خير الدنيا والآخرة، وقد قرأت الفاتحة فى الضريح وقد وهبت ثوابها إلى روح الشيخ أبى الحجاج، إنه قطب ذو مكانة وشهرة واسعة فى تلك المدينة، وهو قريب الشيخ رمضان الفرغلى، وهو كذلك قطب عظيم واسع الشهرة، وغادرت هذه المدينة، ومضيت جنوبًا على شاطئ النيل فى أرض خالية وعلى مسيرة سبع ساعات شاهدت على ضفة النيل تماسيح وبلغت:

بلدة طوت

وهى بلدة معمورة تقع على أكمة فى ناحية من الأقصر وتضم مائة بيت، تجاوزناها ومضينا وعلى يسرتنا النيل وقطعنا طريقًا مدة ست ساعات وهو طريق فى وسط الصخور فبلغنا بلدة:

شحات

تتبع إقليم أقصرين وهى على شاطئ النيل، وبها مائة بيت وجامع، وهى بلدة عامرة، ومضينا على شاطئ النيل مدة ست ساعات، وبلغنا بلدة:

دير ام على

وبها كنيسة عظيمة ولذلك يسمونها الدير، ورهبان هذه الكنيسة جميعًا من القبط ويقولون إن هذا الدير بنى قبل ثلاثة آلاف سنة.

واتجهنا هذه المرة إلى الجانب الشرقى من النيل، فبلغنا مرجًا مخضوضراً وفيه قبر صغير للشيخ عبد الدايم وهو من أبناء الصحابة الكرام ـ رضوان الله عليهم ـ وقرأت الفاتحة لروحه ومضينا ست ساعات على شاطئ النيل، ونزلنا ضيوفًا على خيمة شيخ العرب لقبائل الحجيزة، واسمه الشيخ ناصر الدولة وفى هذه الليلة تناولنا لحم الجمل وشربنا لبن الناقة وأكلنا حلوى التمر كما أعلفت خيولنا ورجال هذه القبيلة من الفرسان

البواسل، وقمنا فى الفجر وعبرنا أراضى حجرية وبعد ست ساعات كان الوقت الغروب فبلغنا:

ديار عشاير رده

وهم كذلك شجعان وهم عيَّارون وشجعان يمضون إلى بلاد الحبشة ومكثنا فى خيمة شيخهم أبو عصيب، وتناولنا لحم الجمل وشربنا لبن الناقة، وحمدنا الله، وأُعلِفت خيولنا الذرة، وقوم رده هؤلاء لا يدينون بالطاعة إلى والى الحبشة ولا كاشف إبريم فهم جبابرة فى الأرض، ومضينا على شاطئ النيل واجتزنا مدنًا خربة وقطعنا المروج فى ثمانى ساعات فبلغنا قوم:

عربان الشبيكة

وهم ستة آلاف مقاتل من العرب وهم شجعان، وشيخهم يسمى شجاع الدين، وعندهم كثير من الذرة ولحم الغنم وخبز الذرة ولا وجود للقمح عندهم، ولأنهم قوم عصاة متمردون لا يدفعون مال الغلال الذى على ما يزرعون، فقمنا من عندهم ومضينا عنهم وولينا وجهنا قِبَل الجنوب ومضينا على شاطئ النيل، وهو يأتى فى هذه الجهة من بلاد الحبشة، وفى هذه البقاع عرب عصاة وفقراء ليس لهم إيمان كأنهم الحيوان، وليسوا يتبعون ملك الحبشة ولا إبريم ولا بلاد الفونج إنهم رعاع عراة وقدمنا إليهم بعض الهدايا فغادرناهم سالمين، وبعد أربع ساعات وصلنا إلى جبل السلسلة.

أوصاف قلعة السلسلة

إنها جبال شامخة توقع من ينظر إليها فى الخشية، وفى هذه الجبال مئات من المغارات ولا يعلم عددها إلا الله، حفرها قوم عاد وثمود وكانوا يسكنونها، وسخرت لهم صخور الصوان وكأنما طَحَنُوها وبنوا بها قاعاتهم وحجراتهم وكل حجرة ترتفع أربعين أو خمسين ذراعًا، وفيها عجائب وغرائب كأنها حية، وفيها تماثيل وتصاوير غريبة وفى كنهها تحار العقول، وفيها صور تنظر إلى مشاهدها وهى باسّمة كأنها تبتسم، وخلاصة القول أن جبل السلسلة هذا عجيبة من عجايب الزمان، وعلى سطح هذه الصخور حِصنٌ حصين، كما توجد قلعة قبالة النيل هى قلعة أتفود.

قلعة أتفود

وأمامها يجرى النيل، وفى زمان كانوا يجرون هاتين القلعتين إلى النيل بسلسلة ولذلك يسمون هاتين القلعتين قلعة السلسلة وبعدهما شلال بوغازى وشلال الولاية، إنهم سبعة مضايق والنيل بعدهما يمتلئ بالجزر العامرة وليس فى هاتين القلعتين رئيس لهما ولا قواد ولا جنود، ولكن يسكنها فوج من قبائل الجعفرية، وقبالة هذه القلعة فى جزيرة قبر الشيخ كوم صياح.

زيارة قبر الشيخ كوم صياح

حينما يفيض النيل ويغمر هذه الجزيرة يصيح، وهو يصيح موحداً بالله ولذلك يسمونها جزيرة الصياح.

وبلدة كليج

معمورة ويتبعها مائة قرية وجميع أهلها ملاحون ويسمونهم قبيلة بصلى وبها ثلاثة آلاف إنسان وقد أتوا من قوم الهوارة، واستوطنوها، وبعد ذلك مضينا خمس ساعات جنوبًا على ضفة النيل إلى قلومبو

أوصاف قلعة قلومبو

إنها من بناء شداد بن عاد، وهى قلعة كانت لملوك بعد ملوك ثم استولى عليها سيف بن ذى اليزن من القبط ثم اجتزنا صخور شلال بوغازى ويجرى النيل إلى صحراء نصف المغرب وفى مقابل جزيرة كريد يخلط ماؤه بماء البحر الأبيض وطريق جريانه خندق عظيم وفى عهد عثمان بن عفان استولى أبو عبيدة بن الجراح على هذه القلعة من القبط، ولكن بعد أن استشهد عثمان استردها القبط، وكل القلاع التى على النيل تحت حكم إبريم وفى قضاء أسوان، وفى داخل القلعة ثلاثمائة بيت من حصير يسكنها بنو جعفر، إنهم مسلمون ولكنهم على المذهب الجعفرى، وإنهم يسكنون فى القلعة وفى الصحراء خارجها، إنهم ستون ألف إنسان وهم قوم يعيشون فى رغد من العيش، وفى الجانب الشمالى للقلعة ضاحية عظيمة، ومضينا على النيل ثلاث ساعات، ومررنا بأراضى صلبة كالحديد، وفيها كل صخرة فى حجم الفيل وقد أصبحت سداً فى النيل،

ويسمى العرب هـذا السد بخيط العجوز، وفى الجـهة الشرقية للقلعـة مغارات بها ألف تمساح مكفن وقد تراكمت هذه التماسيح بعضها على البعض وأكفانها من قشور الدوم، ومـن الـعجـب أن البلـى لم يصبهـا، ولكن لا تنبـعث رائحة خبيـثة من رممها كـسائر الحيوانات، وهـذا أمر عجب، وهذه التمـاسيح يسمونـها جبل التمسـاح، وقد فتح ذو اليزن فى الصخر طريقًا، والسفن تمر فى هـذا المضيق، وهذه السفن سفن صغار وتمضى إلى أسوان، ثم تحمل الجمال أحمال السفن، وفى هذا المكان سبع مضايق وشلالات من بعيد تتدفق مياهها وتمر فى جبال شوامـخ وبين صخور، وثمة بوغاز والنيل ترتمى مياهه فى هوة فى طول المأذنة.

ومن عجب أن بعض السفن تطير فوق هذه الصخور ثم تجرى ويجرى النيل فى هذه المنطقة وبين ضفتين عليهما جبال كأنهـا الجودى ويتشعب النيل فى هذه المنطقة وبين كل شعبة وشعبة جزيرة والجزر المعمورة تقع فى الجانب المقابل، وسوف نتحدث عن هذا فى موضعه بمشيئة الله.

ومن يمضـون من قلومـبو إلى الحبشـة يبدأون السيـر من هذا الموضـع وبعض وزراء الحبشة يـقدمون إلى هذه القـلعة، ومنها يـجمعون الجند ويـحملون المؤن علـى الجمال ويقطعـون الصحراء إلى الحبـشة، وليس لهم طريـق سوى هذا الطريق، وهـذا الطريق طريق حجرى والطريق إلى إبريم على ضفة النـيل ويمضى جنوبًا وطريق إلى الحبشة فى الجهة الجنوبيـة، وقد مضيت مع جماعة من قـلعة قلومبو فى الطريـق إلى إبريم وسرنا ثلاث ساعات حتى وصلنا:

مدينة صين باس

كانت مدينة عـظيمة فى قديم الزمان ومضينـا بين خرائبها يومًا بتمامـه وفيها غرائب وعجائب وأعمدة ومطلسمات، وفيها ما فى (آت ميدانى) فى استانبول من أحجار مربعة وعليها علامات غريبة، إنها كانت قديمًا مدينة قوم عاد، وقد خرج من الحبشة أبرهة فى سبعين ألف فيل ومضـى إلى هذه المدينة فخربها وأهلك أهلهـا، وهى الآن مدينة خربة ليس فيها سوى البوم والأفاعى.

وعلى ضفة النيل مدينة بها مائتا بيت من الحصير وهى بلدة تشبه القرية وفيها جامع بلا مئذنة، وبجانب هذا الجامع ضريح الشيخ رجابى، وهو قطب عظيم، وهذا الضريح فى غابة من أشجار الدوم وثمة ضرائح ثمانية وسبعين قطبًا من الأولياء، ولكن أجهدنا القيظ فلم نستطع زيارتها وإن كنا قرأنا سورة يس ومضينا لطيتنا ومضينا بين الصخور فى طريق ضيق من المرتفعات والمنخفضات ولقينا من سفرنا هذا نصبا حتى وصلنا أسوان.

أوصاف قلعة أسوان

يذهب المؤرخون المحققون إلى أن قلعة أسوان بناها عاد بن شداد بعد الطوفان لأنهم يسمونها دير عرياق وأنها دير عظيم، والملك عرياق مدفون فى هذا الدير فى تابوت من النحاس وعلى الجوانب الأربعة لهذا التابوت كتابات بالعبرية ويسميه القبط عرياق بن عيوام ويقولون إن إدريس ـ عليه السلام ـ رفع إلى السماء فى عهد هذا الملك وفى زمان هذا الملك سجن هاروت وماروت فى بئر بمدينة بابل، وخلف عرياق فى الملك ابنه ألوخيم وكذلك ألوخيم مدفون فى هذا الدير، وخلف ألوخيم فى الملك ابنه خصيليم، وهو أول من بنى المقياس فى النيل عند أسوان وآثاره باقية إلى اليوم.

ثم قدم مصر الخليفة المأمون العباسى من بغداد وبنى المقياس فى مصر وخرّب المقياس الذى فى أسوان حتى لا يكون هناك مقياس بناه أحد سواه، وخصيليم هذا فرع النيل ترعًا، وفرش هذه الترع بالرخام وأمام مدينة أسوان هذه المنطقة من النيل أحجار فى حجم جثة الفيل، وقد سوى هذه الصخور وصنع منها سدًا فى بلاد النوبة اثنتى عشرة قنطرة، ولم تبق من هذه القناطر اليوم سوى واحدة، وقد دمرتها الزلازل، وأُسُسُها ظاهرة فى النيل، وظهر نوح فى عهد خصيليم هذا وقد ركب خصيليم هذا فى سفينة نوح عند الطوفان، وقد عَمّر ثمانمائة سنة، ولذلك قال المؤرخون إن مدينة أسوان كانت قبل الطوفان لأن فيها آثار لخصيليم وأبيه ألوخيم وجده عرياق، وهذا بالعبرية مسطور على الصخور، ثم عمرها عاد ولكن خربها أبرهة بعد الطوفان وقد جاء ذلك على التفصيل فى كتب الخطط ومحمد بن إسحاق وتواريخ الشهابى رحمة الله عليهما،

ولكنى أحقق هذا فى يقين فأقول ما مجـمله أنها بقيت بعد زوال دول ودول وهى مدينة قديمة، وقد فتحها عمرو بن العاص وهى التزام تابع لجرجا، ويتحصل منها أربعون كيسًا كما أنها كاشفية تابعة لكاشف قوص ويتبعها ستون قرية يتحصل منها ومن توابعها المائة والخمسين ستمائة أردب من الغلال ولكن ليس فيها جند مستحفظون من أربع فرق وهى قضاء يـدر مائة وخمسون كـيسًا وريعهـا السنوى ثلاثـمائة قرش ويبقـى لكاشفهـا بعد المصروفات خمـسة أكياس، ولها قلعـة عظيمة على ساحـل النيل، وهى سامقة مـثمنة الشكل بناها شداد ومحيطها ثلاثة آلاف وسـتمائة خطوة، ولها ثلاثة أبواب وفى داخلها حدائق وخمسمائة بيت صغير للفقراء ولرئـيس هذه القلعة مائة وخمسون جنديًا، وفيها فرقة موسيقية ومخزن للأسلحة وعشرون مدفعًا، وهى الآن حد عظيم لأن حولها عرب عصاة، وبها جامع وسـبع زوايا وثلاث مقاهٍ، وستمائة بيت وليـس فيها حمام ولا خان ولا مكتب للصبيان ولا سبيل ولا أسواق ولا دكاكـين ولكن تقام فيها سوق عظيمة كل أسبوع، ويجتمـع فيها خلق كثير من جمـيع الأجناس يبيعون ويشترون ويـوجد فيها ما ليس له من وجـود، وخارج القلعة ضاحية بهـا حدائق وبساتين وسبعمائـة بيت وبعض هذه البيوت خربة ولكـنها رممت وسكنت، كما أن فيها جوامع وزوايـا ولكن ليس فيها سوق وبها بـعض المقاهى المصـنوعة من الخشب والأكـواخ والدكاكين، وكانت بـها فى ماضى الزمـان على مسيرة ثلاث سـاعات على ضفة النيـل أبنية كأنها قـصر الخورنق، وأعمدة لا حـصر لها وضرائح عـالية وخان وحمام وسـوق للبَزّ وعمـائر كتبت علـيها طلاسم، وكأن هذه الطلاسم قد كتبت منذ هنيهة، وقد اعتشت فى هذه العمائر الغربان والحمام والغربان فيهـا تنعق، وفى الشتاء تغادرها كل الطيور، ويـأتى العرب ويسكنون هذه الخرائب، وجو أسوان لا بأس به، وفيها الأسلـحة لا تصدأ وتبقى مصقولة ووجوه أهلهـا وردية ولاعْتدال جوّها كـان الجمال فى فتيـاتها وفتيانـها، أما شراب البوزه فـيها فيبعث القوة فى الروح وشراب البوزه هذا مرغوب طيب.

باب الأبواب

إنها جزيرة خربة فى بوغاز الشلالات بأسوان، ويسمونها باب الأبواب وبما أن النيل يتشعب سبع شعب فثمة عدة جزر، وفى كل من هذه الجزر يؤكد الكشفيون على وجود معادن جديدة ففيها النفط والقطران والكبريت والرصاص والكبريت المائى، وفيها حمم ماؤها حار يستشفى به، ولكن ليس فيها أثر للعمران، وعند فيضان النيل تغرق هذه الجزائر جميعًا ولا يبقى أثر لما فيها من معادن وحمم، ولا يستطاع استخراج هذه المعادن منها ويفيض النيل وتخضوضر الأرض فى مصر، وأهل الطب من أهل مصر لا يشربون من ماء النيل وإنما يحضرون الماء من بئر فى المطرية ويشربونه وإذا شرب الناس من النيل فى وقت الفيضان وهو أخضر تورمت أرجلهم مثل الطلومبة وارتعشت أجسامهم نعوذ بالله، وأصل اخضرار ماء النيل واحمراره هو ما تجمع أمام تلك الجزر من النفط والكبريت والقطران ويتلون ماء النيل بألوان مختلفة ومنها تهلك الحشرات ولكنها تأتى ثانية، وتختفى فى الترع وهذا هو سبب اخضرار ماء النيل وجنوب أسوان تسمى:

ولاية علوى

إنها ولاية واسعة تمتد حتى الحبشة ودُنْبِسْتَان ولاعْتدال جوّ هذه الولاية يتصف فتياتها وفتيانها بالجمال فلهم عيون كعيون الغزلان ويتزوج أعيان أسوان من عذارى ولاية علوى، ومن عذارى علوى من لم يبلغن المحيض ولكن يحملن وغالبًا ما يَمُتْنَ عند وضع حملهن، والعهدة على رواية أهل أسوان، ويذهب بعض المؤرخين إلى أن لقمان - عليه السلام - نبى وقيل إنه نبى أسمر اللون، ولد فى أسوان، كما أن ذا النون المصرى من أسوان وأصبح من صحابة الرسول ﷺ كما أن النبى إدريس - عليه السلام - ولد فى هذه المدينة، وقد زرت قبره وهو مدفون فى مغارة وقد مرغت وجهى الشاحب على أثر قدمه فى الأرض حين عرج فى السماء، وكل أثر لقدمه يبلغ ثمانية أشبار طولاً وعرض الأثر ثلاثة أشبار، وكأن هذا الأثر حفرة كالصندوق، وعندما ينزل المطر فإن حفرة أثر قدمه تمتلئ بمطر الرحمة والوحوش والطيور تشرب منه، وبجواره غار لقمان ومنه تفوح رائحة العقاقير، وهى رائحة طيبة ولم تنقطع هذه الرائحة من ألف سنة، فما من ريب

فى أنه نَبِىٌّ، وذا النون المصرى من ذريته وكان طبيب النبى ﷺ، وأجيال الأطباء تنتهى إليه، وفى جنوب أسوان ولاية النوبة العظيمة ويسمونها باب النوبة.

ولاية النوبة

إنها أرض غنية ومعدن الزمرد فى جبالها، وتستخرج المعادن والزمرد منها ولذلك أهلها أثرياء منعمون وقد أمر حاكم جرجا باستخراج الزمرد، وأمر أن يصنع منه الكؤوس والأقداح وقبضات الخناجر ودبوس من قطعة واحدة، ولكثرة ما استخرج من الزمرد أصبح على بك عريض الثراء واسع الدنيا، وإن كان استخراج الزمرد يتكلف نفقات باهظة، وفى أرض أسوان أربعون نوعًا من المعادن ولكنهم لا يعرفون كيف يستخرجونها، وجنوب النوبه أرض خربة، وبالقرب من أسوان شاة تلد فى السنة ثلاث مرات، وفى كل مرة تلد حملين وهذا بسبب لطافة الجو: ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [البقرة: ٢٠].

عجيبة

وفى شمال أسوان شجرة منقطعة النظير وهى قائمة منذ عهد بنى إسرائيل وهى تثمر صَيْفًا وشتاء ويسقط ورقها كل سبع سنوات ثم تورق من جديد، وتسمى شجرة الخط، وهى شجرة لها الشهرة فى بلاد أسنه وأسوان وسودان وفونجستان ونوبة ودوميية وعلوى وحبش ويحتضن جذعها عشرة رجال ولها أربعون فرع يحتضن كل شعبة منها خمسة رجال، إنها دوحة عظيمة عالية، يمكن أن تظلل أربعين ألفًا من الغنم واتفق ذات مرة أن أحد الزنادقة استظل بها فسقطت عليه ورقة خضراء منها فأخذها الزنديق، فأخذ العجب منه كل مأخذ من ذا الذى أنبت الورق على الشجرة فسقطت من الشجرة عليه ورقة أخرى بأمر الله، وقد كتب على هذه الورقة من أنبت الورق على الشجر هو الذى شق السمع والبصر فى وجه البشر، وفى التو نطق الزنديق بالشهادة ثم زفر زفرة وفاضت روحه وله قبر فى ظل هذه الشجرة ويسمى قبر الشيخ الزنديق، ويزور الشجرة الخواص والعوام والآن أوراقها مخضوضرة، وهى كذلك إلى ما شاء الله، ولكن لا وجود لكتابة على أوراقها، وهى فى الطريق من أسوان إلى النوبة فى مرج واسع الأرجاء وهى تبعد عن أسوان بربع ساعة.

وقدم السلطان قايتباى من مصر فأمر بترميم قبر الشيخ الزنديق وأنشأ صفة ومحرابًا له وكتب على عتبته تاريخ هذا الترميم.

وفى أسوان يستخرج أربعون معدنًا، علاوة على الملح والنطرون وشمع العسل والصابون، والصابون كلمة عربية، وتطلق على ما يصنع من الأعشاب والنباتات، ويوضع فى الأكياس، وإذا غسل به الثياب أصبحت بيضاء، إنهم يأكلون شمع العَسل من شدة الحر، وإن النحل يصنع العسل وإذا ما نزل غيث الرحمة تسد خلايا النحل، وينمحى العسل بالمطر ويخرج شمع العسل ويجمع ليباع، إنه أكثر بياضًا من الكافور وله رائحة كرائحة العنبر ولهذا الشمع أربعون فائدة، وإنه ينفع فى ألم الوسط والصداع والمغص، وإذا تناوله أحد فإن شمع العسل يساعد فى هضم الطعام، ويصلح المعدة ويخلص من غازاتها، وهو مقو ويزيد فى قوة البصر ومن تناوله أربعين يومًا لم يَبْقَ فى جسمه أخلاط، ويتورد وجهه، ويصح بدنه وشمع أسوان كثير فى سوق الفحامين فى مصر تلك هى خواصه.

ومن العجائب

أن عمودًا يوجد على ربوة من الرمل فى شرق أسوان على مسيرة ربع ساعة شرقًا ويرتفع مائة ذراع، وعند قمته صورة إدريس ـ عليه السلام ـ، وكأنما يجلس حبشى على قمته وكأنه حى ويبتسم وهو يرفع أصبع الشهادة كأنما يشير إلى السماء، وقد ولد إدريس فى أسوان، وبعث فيها ثم عرج به إلى السماء منها، فدخل أمته الحزن وجعلوا يبكون ويتجولون فى ذهول وحيرة إن إبليس اللعين ظهر لهم فى صورة شيخ، وإنهم يبكون وينتحبون لفراق إدريس وفى التو أمرهم الشيطان بأن يرسموا صورة إدريس، وعلمهم أن يسجدوا وبذلك كفوا عن النواح والنحيب ومرة كل عام يأتى إلى هذا العمود جميع الخلائق ويسجدون عنده، وإن إبليس الشيطان اللعين يمثل تلك الصورة ومن هذه الصورة كان يُتَنَبَّأُ لهم عما فى الغيب وكانت هذه حالهم إلى أن ظهر النبى ﷺ، ثم نتهى هذا الأمر، والآن يسمونه رمال الصنم، ويتجه القبط نحو الشرق، ويركعون عند هذه الصورة.

ومن العجب

أنه إذا ما دفن أحد فى هذه الربوة من الرمال أصبحت عظامه حجرًا بعد سبعة أيام، وهذا من عجيب صنع الله يفعل الله ما يشاء بقدرته ويحكم ما يريد بعزته: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤]. وقلعة أسوان هذه على شاطئ النيل لها سور عظيم.

حائط العجوز الساحرة

كل حجر فى هذا الحائط حجمه من أربعين إلى خمسين ذراعًا، وكأنه سد الإسكندر، إنه من قطعة واحدة، وفى أسوان علاوة على هذا البناء فى خرائب أسوان آثارٌ لعمائر يحار عقل من يشاهدها وعليها كلام النبى ﷺ عن شهادة على ـ رضى الله عنه، وكرم الله وجهه ـ كما أن كلامًا لعلى فى الجفر.

وقد أخذت ذلك من مختصر كتاب مفتاح الجفر للشيخ العلامة كمال الدين أبو سالم محمد بن طلحة غفر الله له، وقد ذكر على ـ رضى الله عنه ـ: (أن أشراط قيام الساعة عند اقتراب آخر الزمان أن أسوان سوف تتخرب بعد أن عمرت من قبل) وهذا كلام على ـ رضى الله عنه ـ، ومن قوله أيضًا: (إذا عمرت أسوان من قطر مصر فى آخر الزمان بالياء ثم العين يظهر بمصر الخصيان، وتحكم النسوان، وتفسد عليه السلطان، وتكثر الغربان، ويختل نظام صاحب الديوان، وتقوى شوكة الجيم، وذلك إذا حصل القران فى برج الهوا، وبعثر ما فى القبور، وحُصِّل ما فى الصدور، وصار الآمر مأمور) وسبب هذه الإشارات ما نقل فى تاريخ ابن مهدويه أن عمرو بن العاص وهو عامل مصر عند فتوحها كتب إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ يبشره بفتح مصر وذكر له صفتها وعدة حصونها المشهورة، وأن من جملة حصونها بالوجه الجنوبى قلعة تسمى أسوان على قرب نيلها حصينة مانعة رأينا وجه الصواب فى هدمها حتى تنقطع أطماع الكفار منها فهدمناها حجرًا حجرًا فلما بلغ الكتاب إلى أمير المؤمنين عمر ـ رضى الله عنه ـ فقرأه واستوفاه ثم قال حضرت عَلِىّ ـ رضى الله عنه ـ نعم بذلك أخبرنى رسول الله ﷺ وعندى خبر هذا وستعمر فى آخر الزمان عمارة حصينة على يد

ياء ونكَّرَهُ ثم عين، ولـم يصرح باسم أحد غير أنه ـ رضى الله عـنه ـ أشار إلى حرفين صديقين لا منافرة بينهما وهما اليـاء والعين فالياء حرف ترابى والعين حرف مائى، ومن المعلوم أن الماء والتراب صـديقان، وهما أعظم آلات العمارة، فإنه يفهـم من قوله بالياء ثم العين أن مراده تعريف اسم من يتولى أمر عمارتها صدق عَلَى الرَّضِىُّ السَخِىّ.

وفى أسوان كثير من رموز لكنوز، لأن أسوان بلد من سبعة بلاد على وجه الأرض، لقد شاهدت أسوان ولكـنى لم أجد فيها وقتًا لِرَاحَتى لأن فـى أرضها مئات الآلاف من كبار الأولياء والشهداء والصحابة الكرام الذيـن قدموا من مصر مع الفتح، ولهم قبور لا سبيل إلى حـصرها لكثرتها، وقـد قرأت سورة يس لأرواحهم الشريـفة، وشاهدت فى جنـوب أسوان علـى ضفـة النيـل سدود خيـط العـجوز ورأيت الـتماسـيح فـى جزر الشلالات، وبعد أربع ساعات وصلنا إلى شلال المضيق.

أوصاف شلالات المضيق

إنه لشلال عظيم، وهو مشهور لدى الـعَرَب والعَجَم والروم، وقد سبق أن وصفناه، وهذا الشلال بـه صخور يَضْرِبُ لونُـها إلى الشُّهْبَـة. وفى هذه المحلة أعشـاش الصقور والنسور والغربان، وهناك جبل مهيب مخـوف، ويعبر التجار هذا المضيق ويذهبون إلى القرى، والصخور فى هذا المضيق متقاربة، وتلاطم مياه النيل يصم الآذان، ورشاش ماء النيل يجعل الجو ممطرًا ويصاب من على مـقربة منه بالبَلَلِ، وإذا حل الشتاء وغَاضَ ماء النيل ظهرت أحجـار كأنها قباب الحمامات، ويدفع الماء الإنسـان من صخرة إلى صخرة ويستطيع أن يعبر بين الضفتين، وفى سالـف الدَّهر حينما كان هذا المضيق مسدودًا، كان النيل يـنشعبُ إلى رافدين فـيجرى فى ترعة إلى إقلـيم الحبشة وفى الأخرى إلـى إقليم علوى واختلط ماؤه بماء البحر الأحمر بواسطة السواقى على الترعة التى تتجه إلى إقليم الحبشة وآثار ذلك اليوم باقية فى موضعها.

وبعد الطوفان أحاط سـيف بن ذى يزن بعلم الهندسة وشتى الـعلوم والفنون، وأنس برأى الكاهنين صفوايم ومحرايم؛ فشق فى الجبال شقًا، أما سبب جريان النيل إلى مصر الآن فهـو مردود إلى سـيف بن ذى الـيزن، وكان جريـان النيـل إلى مصـر سببًـا فى

عمرانها وخصوبة أرضها وأصبحت الحبشة والمغرب صحراء، وقد اجتمع المؤرخون على القول بهذا، وقد رأيت أثر جريان النيل فى سالف الدهر حفرًا فى الأرض، وكانت منطقة الشلال قديمًا معمورة فكان فى أسوان حدائق وجنات ألفافًا، وفيها كذلك أثر للعمائر.

وقد دعا موسى ـ عليه السلام ـ الله على الفراعنة والكهنة والسَّحَرَة فى هذا المكان ومصداق ذلك قوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ﴾ [القصص: ٨٨]، فتخربت عليهم مائتا بيت.

وثمة جامعان عظيمان قديمان بها، ولكنهما مع ذلك لا يخلوان من المصلين، وليس لهما بهاء سائر الجوامع، ومنهما جامع سيف بن ذى اليزن والآخر جامع عمر ـ رضى الله عنه ـ ولا وجود لسوق ولا خان ولا حمام، وخرير السنيل هناك من الشدة بحيث لا يمكن السُّكنى إلى جانبه كما أن الواحد لا يسمع كلام الآخر، ولكى يمكن لإنسان أن يكلم آخر كلامًا يسمعه فينبغى أن يرفع صوته مثل الجاووش، ويقال إن سبب هذه الجلبة هو أن للنيل رعدًا، وقد غادر السكان هذه المنطقة لأن رشاش النيل يهبط عليهم كأنه الرزاز ويصيب ثيابهم بالبلل.

أوصاف قلعة أبواب

بناها ذو اليزن إنها رباط حصين مستدير على المضيق فى الجانب الشرقى من النيل فى أسوان، وفيها يسكن قبائل القَرْح وفيها خمسمائة بيت بعضها من الحصير وبها جامع قديم، وليس للقلعة رئيس ولا جنود، وقديمًا على الصخور التى أمام هذه القلعة كانت تحصى الرسوم من السفن الرائحة والغادية، وتلك السفن كانت تقف أمام السلسلة التى بين القلعتين حتى تدفع الرسوم المستحقة عليها، وغادَرْتُ قلعة أبواب وانطلقتُ جنوبًا على ضفة النيل، ومضيت فى طريق كثير الأحجار وسِرْتُ فيه ست ساعات، حتى وصلنا:

قبائل كنوزين

نزلنا ضيوفًا فيها على الشيخ على الواسطى، أما أصل تسمية هذه القبائل بهذا الاسم

فهو أنهم عثروا على كنزين فى أراضى أسوان الخربة، وقد قسموا الكنزين بالسويَّة عليهم، وجاءت قبيلة عربية من بَعْد على أثرهم وطلبت نصيبها إلا أنهم لم يعطوها من الكنزين شيئًا؛ فنشبت الحرب بينهم عبوسًا شعواء، إلا أن رجال القبيلة الذين طلبوا نصيبهم أعملت السيوف والرماح فيهم فسميت القبائل المنهزمة بقبائل القَرْح وسكنوا جزيرة الشلال وهم الآن على مذهب الإمام مالك، ويدَّعون أنهم من ذرية ابن ذى اليزن ولهم سبعة آلاف محارب، وفى أول ليلة لنا هناك ضَيَّفُونا وقدموا إلينا الذرة ولحم الإبل ولبن النوق فطعمنا وشربنا، وهذه القبائل تمضى إلى الحبشة فى الربيع، لأن منطقة الشلال جبلية متقاربة والزروع بها قليلة نادرة وهؤلاء القوم لديهم كثير من الأنعام فلذلك يمضون إلى الحبشة طلبًا للمرعى، ثم مضينا خمس ساعات وبلغنا قبيلة مِهْرِيَّه.

قبيلة مِهْرِيَّه

وحللنا ضيوفًا على الشيخ حامد مهرى، وبها ألف وخمسمائة فقير من سُمْرِ البشرة وثوبهم لا يعدو أن يكون ما يستر عورتهم، وهم على مذهب المهريه وهم ينكرون الحشر والنشر، ومضينا على ضفة النيل فى طرق ذات أحجار لا تتسع إلا لمرور رجل واحد وسِرْنَا بينما يتبعنا الخدام، وقطعنا هذه الطرق سيرًا على الأقدام، وقد شق هذا الطريق بن ذى اليزن ولا طريق سواه وبعد ساعتين بلغنا قبائل كلافيش.

قبائل كلافيش

ومعنى كلافيش: الشىء القليل، وليس لهم خيام، إنهم جميعًا يسكنون الكهوف، وقد دلنا شيخهم على غار فمضينا بخيولنا إليه وانصرفت عنا شدة القيظ، إنه غار بارد النسيم، وفى هذه المنطقة الصخرية ثلاثة آلاف من العرب المتمردين، ولهم كثير من المعز وليس لديهم أنعام أخرى وطعامهم الذرة ولحم الجمل والتيش وهو كباب التماسيح والمعز، وهم يجامعون أنثى التمساح ويقولون إنهم حين يجامعون أنثى التمساح يتحلب ريقهم وأنهم قوم جبابرة أشداء من أكل لحم التمساح ويستخرجون من مرارة التمساح حجرًا، وإذا أمسكوا بهذا الحجر استطاع الواحد منهم أن يجامع زوجته أربعين أو خمسين مرة، وإذا كان هذا الحجر كذلك عند نسائهم فإنهن كذلك لا تهدأ شهوتهن،

وهذه البقعة لا وجود للـترع فيها ولذلك ليس لديهم إلا البرسيـم والتمر، وعندهم من نبات الذرة ما هو أحمـر اللون وهم قوم صيادون يمضون إلى جبال الحـبشة، ليصطادوا الفيلة، وليـجمعوا سن الفيل ووحيد القرن لـيأخذوا قرنه ليبيعوه، ذلك ومضـينا عنهم على ضفة النيل جنوبًا وشاهدنا جبالا شامخة وصخورًا ضخمةً وبعد عشر ساعات بلغنا عشاير أبو حور.

عشاير أبو حور

إنهم قـوم من العرب سـود البشرة وزنـوج وفقراء ولا يعـرفون دينًا ولا حـشرًا ولا نشرًا، وقد تجاوزنا هذه العشائر، ومضينا خمس ساعات وبلغنا قبيلة سنيال.

قبيلة سَنْيَال

لهذه القبيلة فى الصحراء متراخِية الأرجاء أَخْبِيَةٌ وخيام، وهم ألفا رجل من المسلمين ولأنهم من العرب فإن وجوه نسائهم مكشوفة ومـكثنا فى خيمة شيخ العرب عبد المجيد وقدموا إلـينا الأنفحة، ثـم ذبحوا لنا ثلاثـة خراف، وأكرمونا إكـرامًا عظيمًا، وأعـلفوا خيولنا الذرة البيضاء، ورأيـنا جنديًا مصريًا يلبس حمر السراويل فاطمـأنت قلوبنا لعلـه كان جنديـًا مـن إبريم وقدم إلينا بعض رغفـان فأكلناها لأن ما كان لدينـا من خبز نفذ فأكلنـا الزبد بـالخبـز فكأنـما ردت عـلينا روحنا، والنـيل فى هذه المحلة ينـقسم إلى مضايق، ثم دخلنا فى إقليم إبريم فى طريق حجرى ومضينا فيه سبع ساعات جنوبًا بين الصخور حتى وصلنا:

بلدة كُوشتَامِينه

بها مائتا بيت من قـصب، وأهلها مطيعون منقادون، وبها زاوية ومقـهى وفيها قبيلة من عرب كنوز تسكن الخيام، ومضينا جنوبًا خمس ساعات فوصلنا:

بلدة كورت

وفيها ثمانية وسـبعون بيتًا من قصب وزاوية، وليس بها مقـاه ولا حانة للبوزه، وبها أيـضًا قبيلـة مـن عـرب كنـوز تسكن الخيام، وهذا الموضع هو حد عرب كنوز وهم لا يمضون إلى إبريم لأن النيل فى هذه المحلة على ضفـتيه مروج تزرع بها اللوبياء والبطيخ وبعد خمس ساعات بلغنا بلدة سبوع.

بلدة سَبُوع

نزلنا عن خيولنا لنشاهدها، وسقنا الخيول إلى الصحراء وتجولنا ساعة فيها لنشاهدها وعلى ضفة النيل آثار فيلة من الصخر، وأسود نحتت من الحجر إذا شاهدها الإنسان دخله الخوف الشديد ويظن أن هذه الأسود أسودًا حيّةً، إنها تماثيل متقنة الصنع وعلى ضفة النيل كذلك جِمَالٌ من الحجر الأسود وتنانين لها سبعة رءوس منها المنكس وبعضها ما ساخ فى الرمال إنها تنانين عجيبة وثمة أعاجيب أخرى، ولكن ليس فى الإمكان ذكرها وربما تحارب موسى ـ عليه السلام ـ مع فرعون فى هذه المنطقة، وقد صنع سحرته من سحرهم هذه العجائب، وقد أوحى إلى موسى آية: ﴿ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴾ [الشعراء: ٣٢]، وألقى موسى عصاه المتعددة الرءوس فإذا هى حية تسعى فابتلعت الحية ما صنع السحرة والكهنة بسحرهم من أسود ونمور وتنانين؛ فهزم فرعون وتعلق بأذيال الفرار، ولعل ما رأينا من هذه التماثيل هى بقايا هذه الوحوش التى صنعها سحرة فرعون، وهى التى أصبحت من بعد حجرًا بأمر الله؛ ويسمون هذه البقعة (سَبُوع) لوجود الأسود بها وفى العربية مائة وثمانون اسم للأسد منها (سَبُوع) وقد شاهدنا هذه البقعة وتجاوزناها ومضينا أربع ساعات جنوبًا، على شاطئ النيل واجتزنا الصحارى حتى وصلنا:

وادى العرب

اسم محلة واسعة، وهى سَهْلٌ ذو مروج، ويجتمع جميع العرب فيه مرة كل عام، وفيه يدوم البيع والشراء سبعة أيام وسبع ليال، ولذلك يسمى وادى العرب، وعبرنا أراضى خصبة فى الجنوب وبعد أربع ساعات بلغنا تخت أزرق جادو.

أوصاف مدينة تخت ازرق جادو

بناها فرعون أزرق جادو وبعده فتحها ذو النون ثم استولى عليها القبط ودامت فى حوزتهم مئات السنين، ثم فتحها الأسود بن مقداد قائد عمرو بن العاص، ثم استولى عليها أهل بربرستان وفونجستان، وفى عهد السلطان سليمان كان والى مصر الطواشى سليمان باشا فاتح الهند واليمن وأخذ ميناء ديواباد الهندى من البرتغاليين والفرنجة

وقدمها إلى ملك الهند، ومضى إلى الحبشة فى أسطول وجعل على رأسه أوزدمر باشا وأمره أن يفتح الحبشة ومنها عاد إلى مصر، ومن مصر خرج أوزدمر باشا فى جيش كموج البحر ففتح هذه المدينة، وقلعة إبريم، واستولى عليها ملك الفونجستان، وفى هذا العصر ظلت هذه المدينة فى حوزة آل عثمان، وهى تابعة لحكم جرجا وكاشف إبريم الآن مقيم بها، ولكنها كانت تحت حكومة أخرى عند فتحها تحكمها، وكان فيها منذ أربعين عامًا فى حكم جرجه ثلاثمائة جندى وخمسمائة جندى من الفرق السبع ويتبعها جميع القرى وهى التزام يدر مالا وغلالا، وكان يقوم بجمع المال والغلال ويقدمه لجنود القلعة والمستحفظين.

وهى قضاء يتحصل منه مائة وخمسون أقجة، وبها مفتى على المذاهب الأربعة ونقيب أشراف، ولكن ليس بها أعيان، وعلى شاطئ النيل ألف ومائة بيت صغير، ولا وجود فيها لقصور وأعلى الأبنية بها بيت قائد الفرق السبع والچورباجى وشكرباره خاتون والمصاحب على أغا وبيوت للحراس هنا وهناك، وبها عشرون محرابًا تؤدى فيها صلاة الجمعة علاوة على الزوايا، وليس فى هذه المدينة خان ولا حمام ولا سوق للبز، ولكن فيها ست مكاتب للصبيان وسبعة سبل وخمسة عشر دكانًا وثلاث مقاه وستة حانات للبوزه، لأن جو هذه البلدة مناسب ففى شدة الحر تطرب البوزه الجسم كما تدفع الجوع والعطش لِشُرَّابها ويصنعون فيها بوزة الذرة كأنها ماء الورد ويشرب البوزه الكبار والصغار، ولكن أكثرهم ضيق النفس وهم سمر البشرة لأن الحر فيها شديد، ومأكولات ومشروبات هذه المدينة البوزه والذرة وماء النيل وشراب البلح وما سوى ذلك من مأكولات ومشروبات فيأتى إليها من جرجه، وكانت هذه المدينة مدينة عظيمة فى قديم الأيام، ولذلك فإن بها آثارًا تدل على عظمتها، وداخل وخارج هذه المدينة كثير من الضرائح، لأولياء مشهورين وقد زرنا ضريح الشيخ (هو) ولأن هذه المدينة تابعة لولاية أزرق جادو، فنساؤها يشتغلن بالسحر ويسحرن الرجل حمارًا، وقد ابتُلى بهذا كثير من الرجال، وقد سحرن حتى أحد متفرقة الباشا فإذا هو بين الرجال فى المقاهى وحانات البوزه حمار، وقد مكثت فى قصر الكاشف يومين، ثم مضيت لمجىء كاشف أبريم، ومضيت جنوبًا على شاطئ النيل فسِرْتُ لمدة ساعتين وبلغت قلعة إبريم القديمة.

أوصاف قلعة أبريم القديمة

بناها المقوقس ملك القبط، وقد حاصرها وفتحها عمرو بن العاص وكعب الأحبار وأبو عبيدة بن الجراح وجابر الأنصارى وأبو هريرة وسارية الجبل وأسود بن مقداد وأمثالهم من الصحابة الكرام، إنها قلعة حصينة متينة وقد بناها شداد على ربوة مشرفة على النيل وهى صغيرة وحصينة وخماسية الشكل ومحيطها ثمانمائة خطوة، ولها باب واحد مفتوح على الجهة الشرقية، وفى داخلها ثمانون بيتًا صغيرًا وكبيرًا، وفى وسطها جامع قديم الطرز ذو منارة، إنها لسليمان خان، لأن فى عهد سليمان تم الاتفاق مع البربر والفونج على حيلة للاستيلاء على هذه القلعة، ودخلت فى حوزته ومن بعد صار الطواشى سليمان باشا واليًا على مصر؛ فجعل أوزدمر باشا قائدًا له، ففتح القلعة قهرًا فى عشرة أيام، وقطع رءوس من فيها من البربر والفونج فأصبح لونهم أسود، وفى هذه القلعة أقيم جامع سليمان خان، وليس فيها سوق ولا حمّام ولا خان، ولكن للقلعة رئيس ومائة جندى وفرقة موسيقية ورئيس القلعة طبق قانون سليمان لا بد أن يكون من طائفة المتفرقة، ويأتى من مصر فى كل عام ثلاثمائة جندى كما يأتى إلى الكاشف ثلاثمائة مستحفظًا، وهم يحصلون على مال الدولة والغلال ولهم أقلام وأفراد ويأخذون علوفة قدرها أربعون كيسًا سنويًا من حاكم جرجه إنهم قوم شجعان، إنهم يتحاربون ليل نهار كما يحاربون مجرمى فونجستان، ومخزن الأسلحة فى القلعة مخزن عظيم ولهم أربعون مدفع وليس للقلعة خندق لأنها قائمة على أرض صخرية إن جوها لطيف، ولكن فى جنوب هذه المحلة تحرق شدة الحر بيوتًا للفقراء من القصب والحصير، ولكن بحمد الله أن شدة الحر لا تؤثر على الإنسان، ويجب التحرز من البرد فى وقت السحر، وعلى الرغم من أن جميع الناس يأكلون من خبز الذرة إلا أنه فى هذه الديار ينفعهم كثيرًا، ويقيهم من مرض يصيبهم بالإسْهال ثم الموت، وليس فى هذه الديار طاعون، وأكل خبز الذرة يشفى من الإسهال، وأعيانهم يلبسون قميصًا عليه شال أما متوسطو الحال فيلفون حول وسطهم مئزرًا، وعليه مئزر آخر، أما الفقراء فيلفون حول وسطهم فوطة زرقاء ويمضون عراة أما نساؤهم فيأتزرن بإزار أبيض وأسود وعلى

رءوسهن خمار أسود وليس فى تلك الديار جميل ولا جميلة لأن بشرة أهلها شديدة السمرة والبعوض كثير إلى حد أنه يقلق راحة النوام ليلا، ولذلك ينامون فى شال رقيق اللهم عافنا، وإذا ما تجاوز أحد حدود ممتلكات الدولة العثمانية استوجب القتل أو نفى إلى إبريم، وصيف هذه المدينة معتدل ولشدة القيظ ينفون إليها المجرمين.

وأبريم تقع فى نهاية حدود ممتلكات الدولة العثمانية، وفى الجانب الشمالى من تلك الحدود قلعة أزاق، أما فى الجهة الشرقية فنهاية حد تلك الممتلكات العراق أما فى الجهة الغربية فحدودها مدينة بلغراد.

وثمة قلعة تسمى:

قلعة جاوغه

ولكنها فى ولاية لطيفة جوها كأنها حديقة إرم فليس فى أبريم حدائق ولا خلائق، ولكن فيها جبالا سوداً، وإن وجد فى هذه الولاية حدائق يكثر فيها الشمام والبطيخ، وكل كيلة من الذرة فيها تنبت مائة وخمسين كيلة، ولذلك لا يزرعون إلا الغلال، إنهم يزرعون الذرة البيضاء وحيواناتهم تعتلف الذرة، وهذه البلدة تقع فى نهاية الإقليم الأول، إنه على حد قول بطليموس على عشرين درجة وسبع وعشرين دقيقة ويطول النهار فيه ثلاث عشرة ساعة وثلاثين دقيقة أما طول الإقليم الثانى من الشرق إلى الغرب على حد قول الجغرافيين فهو ألفان وأربعمائة فرسخ، وعرضه مائة وستة وثلاثون فرسخًا وفى هذا الإقليم سبعة جبال عظام، وهى مقاليد الأرض كما أن فيه ست وثلاثين صحراء لا يسكنها إلا قلة من الناس، وأرضها ممتلئة بالحشرات، وفيها ألفا مدينة، خمسون منها مدنًا عظيمة، وفى جانبها الشرقى أولاً بلاد الهند والسند ومنصورة وهيزة وكندة وجزيرة العرب، ونجد وتهامة ويثرب والحجاز وديار فلزمك، وفى الجانب المقابل من بحر القلزم الحبشة وزيلع وسواكن وفى أرض بربرستان قلعة إبريم ومدينتها ومدينة دونقلا تخت بربره، وبها تنتهى الأرض الأفريقية والمصرية والبقلية ومقابل المغرب كفار البرتغال وهم على شاطئ البحر المحيط، وقد طوفت بكل هذه البلاد قدماء الحكماء طيلة عمرهم واستخدموا علم الإسطرلاب وعرفوا نعم الله وألفوا كتبهم وهى

أطلس، ومينـور، وجوغرافية وباريه وقولونيـه وكتبوا عن أشكال الدنيـا وقد طوفت أنا كذلك فى البـلاد والقرى التى فى الممالك المحـروسة ووصفت قراها وقصباتـها ومدنها العظيمـة وجبالها وأنهارها ومنازلـها شمالا وجنوبًا ولم أذكر إلا ما تمـس الحاجة لذكره ونقلت المقال إلى الحال، وذكرت أوصافها وأشكالـها ونسجت على منوال أستاذنا نَقَّاش حِكَمِى زاده على بك ولم يتيسر لنا زيارة بلاد الفونجستان بعد فما استطعنا الوصف عنها وأقاليم إبريم هذه تميل سبع درجات عن جهة الشمال.

وقد مكثنا فى قصـر الكاشف أيامًا ثلاثة، وشاهدنا القلعة والمـدينة ومن أجل السفر إلى فونجستـان تزودنا بالزاد والنوق وخمسة عـشر جوادًا يحملون الشعيـر وسائر ما هو لازم للسفر، وقد تبادل الكاشف ورئيس القـلعة والقائد والأعيان رسائل المودة مع ملك فونجستان وأمـراءها وفى هذه المحلة تجار فونجستـان وكانوا فى رفقتنا، وركبـوا ثلاثمائة حمار، ومـن جند القلـعة سايرنا كـذلك سبعون جـنديًا يحمـلون البنادق، وألحـق بنا الكاشـف أربعين رجلاً، وجمـلين وهجينًا وفـرسًا، وودعنا جمـيع أحبابنـا فى إبريم، وخرجنا مـن إبريم قاصدين فونجسـتان مشاة وركبانًا، وبـعضنا يركب الجمـال والبعض يركب الخيل والبعض الثالث يركب الحمير، وكـان معنا من إبريم ثمانمائة رجل يحملون السلاح.

* * *